الباب الثالث

أنا...

فى القرآن الكريم

الفصل التاسع

الذات الإنسانية فى القرآن الكريم

١ - الجسد

- الجسد مُكَوِّن أساسى للذات الإنسانية
- الروح ليست مصدر حياة الجسد

٢ - العقل

- منزلة العقل
- العقل فى القرآن الكريم
  - الملكات العقلية
- موقف القرآن الكريم من العقل
- العقل بين القرآن واللغة

٣-القلب

- وظائف القلب العاطفية والمنطقية
- هل القلب مجرد مضخة للدم؟
- أقسام القلوب

٤ - الروح

- وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا

٥ - النفس

- النفس والروح، ثنائية أم واحدية؟
- النفس محل التكليف والاختيار.
- علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية.
- صور من معاصى النفس.
- أثر الطاعات على النفس.
- سنة الله مع النفس البشرية.
- عوالم ومراتب النفس.

- القارئ الكريم

تحدثت فى الفصول السابقة عن ذاتى، «الذات الإنسانية»، **من منظور العلوم المختلفة،** فتعرفنا عليها من خلال الرؤى المتخصصة لكل من علوم المخ والأعصاب، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والبيولوجيا، والتطور البيولوجى، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والتاريخ، واللغة، وغيرها من العلوم.

ويمكن تشبيه استقلال نظرة كل من هذه العلوم إلى الذات الإنسانية بالقصة الرمزية المشهورة عن **مجموعة العميان، الذين طُلب منهم أن يتحسسوا فيلًا ثم يصفوه،** فاختلفت أوصافهم تبعًا للعضو الذى وضع كل منهم يده عليه. فمن تحسس نابَىّ الفيل وصفه بأنه صلب أملس، ومن تحسس خرطومه اعتقد أن الفيل كائن طويل يتلوى كالثعبان، ومن تحسس جسده اعتقد أنه كالحائط الخشن المتعرج، ومن وضع يده على ساقه شبهه بالشجرة، أما من تحسس ذيله فقد أشفق على هذا الكائن الهزيل!!.

ألا توافقنى أننا من أجل الوصول إلى صورة متكاملة للفيل (أقصد للذات الإنسانية) نحتاج إلى نظرة فاحصة محيطة من بصير، **نظرة تحيط بالنفس من كل زواياها،** وتتجاوز النظرة التفكيكية التجزيئية. لا شك أن خير من يقدم لنا هذه النظرة هو خالق الإنسان الذى لا تتوقف صلته بالذات الإنسانية عند إنشائها، بل يتابعها فى حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها. لذلك، لا يكتمل حديث «**أنا**» عن نفسها إلا بطرح **وصف الله ﷻ للذات الإنسانية فى القرآن الكريم.**

من المفاهيم السائدة عند الحديث عن الإنسان بالمنظور الدينى أن الذات الإنسانية جوهر غيبى هو **الروح،** وأن **الجسد** ما هو إلا دابة الروح أو عباءة تتسربل بها أثناء حياتها الدنيا. ولكن نظرة متأملة لنصوص القرآن الكريم وللعقيدة الإسلامية ترينا **أن تلك الذات وجود مُرَكَّب من خمسة عناصر (الجسد ـ العقل ـ القلب ـ النفس ـ الروح) نتناولها الآن ببعض التفصيل**[1]:

(١) لا شك أن ما ورد فى القرآن الكريم حول هذه المكونات الخمسة شديد الغزارة، وقد أعمل فيه علماء العقيدة والفلاسفة المسلمين عقولَهم فخرجوا بمفاهيم وآراء تملأ بتفاصيلها واختلافاتها مئات المجلدات. وقد اخترت أن يكون عرضى لمفهوم الذات الإنسانية بمكوناتها الخمس محددًا معتمدًا على المفاهيم التى نستقيها بشكل مباشر من **آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة،** دون الدخول فى التفاصيل ودقائق الاختلافات.

١ - الجسد . . .

الجسد مكون أساسى للذات الإنسانية

هناك نقطة خلاف جوهرية ينبغى أن نتأملها، إنها **منزلة الجسد بالنسبة للإنسان، فى منظور الإسلام**. هل الجسد **شىء مُدَنَّس مُنتَقَص**، لا يحقق الإنسان الترقى الروحى إلا بإذلاله أو تجاوزه، أم هو **دابة الروح**، أم هو **أكثر من ذلك**؟ هذه ثلاث مراتب للجسد ينبغى أن نختار من بينها.

لا شك أن كثيرًا من المتدينين يعتقدون فى الفهم الأول أو الثانى، إن تلك النظرة تتطلب التصحيح والتعديل، إذ إن صريح القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة **تعلو بالجسد فوق هاتين المنزلتين، وتعتبره مكونًا أساسيًّا للذات الإنسانية**. ونستشهد على ذلك ببعض النقاط:

١ - كانت **رحلة المعراج لرسول الله ﷺ بالجسد والروح** (فى الرأى الأرجح). وأرى أن المقصود بذلك ليس إظهار قدرة الله ﷻ ولا تعظيمه لمنزلة رسوله الكريم فقط، لكن فى ذلك إشارة إلى أن حقيقة الإنسان هى الجسد والروح معًا، وأن الجسد يمكن أن يرقى إلى مراقى الروح، وأن ينفذ إلى عوالمها غير المادية.

٢ - لا ينبغى أن ندفع النقطة السابقة بأن هذه خصوصية لرسول الله ﷺ؛ إذ إن **كل إنسان منا يحقق العروج الروحى عن طريق سجود الجسد فى الصلاة التى هى معراج المؤمن** ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩].

٣ - عندما أراد الله ﷻ أخذ **ميثاق** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من بنى آدم، فقد **خاطب الأرواح / الأنفس من خلال الأجساد**، بعد أن أخرج البشرية جميعًا من ظهر آدم فى أجساد دقيقة كالذَر وأَخَذَ عليها الميثاق، ويمكن تفسير آية الميثاق على أن فطرة التوحيد **قد وُضِعَت فى جينات نُطف (الحيوانات المنوية والبويضات) كل إنسان فى زمانه**. إن كلا التفسيرين يعنيان أن المخاطَب بالميثاق ليس الروح / النفس فقط، ولكن أيضًا الجسد.

٤- تأمل قول الله ﷻ فى سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل].

إن الإنسان يأتى إلى الدنيا لا يعلم شيئًا، ثم يبدأ فى **اكتساب العلوم والمعارف من خلال حواس الجسد، فنتعلم أمورًا عن عالم الغيب** ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧] **كما نتعلم أمورًا عن عالم الشهادة** ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩].

ليس ذلك فقط، بل إن الله ﷻ يحفز **الإنسان ليتذكر الميثاق الذى أخذه على الإنسان** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾ [الأعراف:١٧٢] **من خلال مراكز الذاكرة فى المخ. كما يزداد إيمان الإنسان بالله ﷻ من خلال الحواس** ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

٥- فى **العبادات كلها** (الصلاة والصوم والزكاة والحج) يقوم كل من الجسد والروح/ النفس بدوره. وتصح العبادة من الناحية الشرعية إذا أديناها بالجسد وإن قَصَّرت الروح/ النفس، أما العكس فغير صحيح!

٦- لا شك أن **المنفعة تبادلية بين الروح/ النفس والجسد. فالنفس ترقى بمجاهدات يشارك فيها الجسد**، كقيام الليل والصيام. كذلك **يحقق السمو النفسى فوائد جمة للجسد**، من خلال رفع مستوى المناعة، وخفض معدل النوبات القلبية والمخية، وتأخير الشيخوخة.

٧- بعد موت الإنسان ومفارقة الروح/ النفس للجسد، **ينبغى معاملة الجسد معاملة تكريم وإعداد للحياة الأخرى**. فيتم تغسيله ليكون على طهارة، ويُلَف فى كفن أبيض نظيف، ويُصلَّى عليه، ويُدعى للمتوفَّى بالرحمة فى حضور الجسد، ثم يُسَجَّى مواجهًا للقبلة.

٨- عند البعث، **يُحشر الإنسان بروحه ونفسه وجسده، ليتم محاسبته على معاصى النفس ومعاصى الجوارح. ويجازَى الإنسان ككائن متكامل، بالنعيم أو بالعذاب.**

٩ -تأمل حديث رسول الله ﷺ الصحيح المتفق عليه (رواه النعمان بن بشير): (... ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا

وهى القلب). ومن دلالات الحديث أن الصلاح والفساد مصدرها مضغة فى الجسد، ويشملان الإنسان كله، وقد أشار إليه الرسول ﷺ بـ(الجسد كله). **هل يصح بعد ذلك أن نقول أن الجسد لا اعتبار له ولا قيمة!**

تؤكد هذه النقاط التسع، وغيرها كثير، الصلة الوثيقة بين الجسد والروح/ النفس، حتى يمكننا القول: **إن كل ما يعتمل فى الروح/ النفس يطفح على الجسد،**

﴿... إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

سبحان ربى ﷻ !

وينبغى أن نلاحظ **أن القرآن الكريم يتحدث فى مواضع مختلفة عن الجسد وعن الروح وعن النفس، بشكل منفصل:**

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[ص:٧١].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾[الإسراء: ٨٥].

إلا أن الله ﷻ عندما يتحدث عنا أو يوجه إلينا الخطاب، يكون ذلك باعتبارنا **كُلًّا متكاملا** (الإنسان)، منذ يوم «ألستُ بربكم»، وحتى نلقى الله ونحيا خالدين فى الحياة الأخرى.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

إن الفصل بين مكونات الإنسان، واعتبار أن بعضها جوهرى (الروح) وبعضها ثانوى (الجسد) وبعضها واسطة بين الاثنين (النفس)، هو مصدر الالتباس. لذلك **ينبغى أن نعيد صياغة نظرتنا للإنسان باعتباره كُلًّا متكاملا.**

لا شك أن **الإسلام يَتَفَرَّد بهذه النظرة المتكاملة. فاليهودية والمسيحية**، التى بين أيدينا، تنظر إلى الجسد ورغباته باحتقار، وترى أن الخلاص فى الحياة الأخرى لن يكتمل للروح إلا بعد أن يُبَدَّل الجسد المرتكب للمعاصى بجسد خالٍ من الرغبات المادية. كذلك ترى **الهندوسية**

وديانات الشرق الأقصى أن حقيقة الإنسان هى الروح فقط، لذلك ترى السعادة الكبرى فى تحرر الروح من الجسدية المدنسة، والتحاقها بالروح الكلى، كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط. وفى المقابل، يتنكر **الفكر المادى** لأى أصول غيبية للإنسان، ولا يرى فيه إلا المادة وقوانينها. **ما أحوجنا إلى النظرة المتوازنة المتكاملة.**

الروح ليست مصدر حياة الجسد

وترتبط بالجسد ظاهرة الحياة، وهى غنية عن التعريف، فكل منا كائن حى، كذلك يمكننا أن ندرك الحياة بشكل أعمق عند تأمل ظاهرة الموت، فبضدها تتميز الأشياء.

ومن المفاهيم الخاطئة واسعة الانتشار عن الروح والحياة أن الأولى مسئولة عن الثانية، وأن الموت يقع عند مفارقة الروح للجسد. وهذا الفهم موجود لدى المتخصصين فى الطب وفى الدين على السواء، ومنتشر بلا شك بين العوام.

والصواب، أن **الحياة ظاهرة بيولوجية** توجد فى جميع الكائنات الحية، النباتية والحيوانية، كما توجد فى جنين الإنسان قبل نفخ الروح (الذى يحدث تبعًا للآراء الفقهية بعد الشهر الرابع من الحمل)، بل توجد أيضًا فى الحيوان المنوى والبويضة. **أما الروح**، الذى هو نفخة نسبها الله ﷻ إلى نفسه، فقد أُختص بها الإنسان، فميزته بقدراته العقلية وملكاته الروحية، واستحق بها الخلافة من الله ﷻ فى الأرض[1].

٢ - العقـــل . . .

منزلة العقل

العقل هو المُكَوِّن الثانى للذات الإنسانية، ومن أفضل ما قيل عن **مهام وشرف منزلة العقل، كلامٌ لابن قيم الجوزية**، يقول فيه:

«والعقل به عُرِف الله سبحانه وتعالى وأسماؤه وصفات كماله ونعوت جلاله. وبه آمن المؤمنون بكتبه، ورسله، ولقائه، وملائكته. وبه عُرِفَت آيات ربوبيته، وأدلة وحدانيته،

(١) للاستدلال على ذلك، وأيضًا للعلاقة بين الحياة والروح وبين الموت والتوفى، انظر الفصل العاشر بعنوان «أنا... والموت».

ومعجزات رسله. وبه امتثال أوامره، واجتناب نواهيه. وبه حُث الإنسان على الفضائل، ونُهى عن الرذائل، فاستَجْلَب ما يزين، ونَفَى ما يشين»[1].

وحول **منزلة العقل فى الإسلام؛ يقول الأستاذ عباس محمود العقاد**[2]: «فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة، ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانًا يسعى به إلى المحراب بشفاعة من وَلِىّ، أو صاحب قداسة مطاعة. ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى **عقل الإنسان** حرًّا طليقًا من سلطان الهياكل والمحاريب، ومن سلطان كهانها المتحكمين فيها بأمر الإله المعبود كما يدين أصحاب العبادات الأخرى،.. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ ...﴿١١٥﴾﴾ [البقرة]».

مما سبق يتضح أن **العقل هو أصل الدين**، فهو الأداة التى يُحَصَّل بها العلم الذى يسلك بالعبد طريقًا إلى الجنة، ويرفعه فيها درجات ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة]. وبالعقل يُفهَم المقصود من الأمر، ويُحَصَّل الدليل على صحة الأعمال، وبه تتم الموازنة والترجيح بين طريق النجاة وطريق الهلاك ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل].

العقل فى القرآن الكريم ...

مما يلفت الانتباه، أن لفظ « **العقل**» فى **صيغته الاسمية**، لم يرد فى القرآن الكريم مطلقًا، لكن وردت مشتقاته فى **صِيَغِه الفعلية**، مثل عقلوا ويعقلون وتعقلون ونعقل ويعقل، قرابة خمسين مرة. أما الألفاظ التى تدل على النشاط العقلى بصفة عامة، مثل التفكير والتدبر والعلم والنظر والإدراك والتفكر والتبصر، فقد وردت مئات المرات[3].

وربما يرجع **عزوف القرآن الكريم عن استخدام الصيغة الاسمية للعقل واللجوء إلى الصيغ الفعلية** إلى **اهتمامه بالأفعال** ونتائجها أكثر من اهتمامه بالتفاصيل النظرية. كذلك فإن استخدام الصيغة الاسمية يتطلب **وضع تعريف للعقل**، بينما كثيرًا ما تفشل التعريفات فى تصوير الشىء

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ٧ - ٨.

(٢) التفكير فريضة إسلامية ـ مجموعة أعمال العقاد ـ المجلد الخامس: ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) هذا المبحث، تلخيص (مع إضافات) عن كتاب «**الصوفية والعقل**» تأليف الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى أستاذ الفلسفة الإسلامية ومقارنة الأديان بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ دار الجيل.

المُعَرَّف تصويرًا دقيقًا، لا سيما إذا اتصل هذا الشيء بحقائق روحية أو نفسية، حتى قالوا «**يكمن الشيطان فى التعريفات، كما يكمن فى التفاصيل**». كما يتطلب استخدام الصيغة الاسمية المُعَرَّفة **تحديد الموضع والعضو** الذى يقوم بتلك المهمة شديدة التعقيد والتى لم يتوصل العلم إلى كلمة نهائية فيها حتى الآن.

الملكات العقلية

يحدد القرآن الكريم **الملكات التى وهبها الله ﷻ للعقل**، لتعينه على القيام بمهامه، ويمكن من تأمل الآيات الكريمة وَضْع أيدينا على سبع مَلَكَات، الثلاث الأولى منها فطرية تنشأ مع الطفل الوليد، والأربعة الأخرى مكتسبة:

١ - **مَلَكَة التمييز بين الحسن والقبيح**، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، **وللتنشئة** التى تقوم بها الأسرة والمدرسة والمجتمع، دور فى تدعيم معايير الحُسن والقُبح تبعًا لمرجعية تلك الجهات. وهذه المعايير خمسة: الحلال والحرام ـ العرف ـ التجارب السابقة ـ المصلحة الشخصية ـ الهوى.

٢ - **مَلَكَة معرفة عواقب الأمور**، ويسميها البعض **العقل التجريبى**، وهى أساس كل تقدم حضارى يحققه الإنسان، كما أنها لازمة وضرورية للنجاة يوم القيامة. لذلك يركز القرآن الكريم على تدبر أحوال الأمم السابقة، وما حاق بهم من سخط الله عندما انحرفوا عن السبيل القويم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر].

٣ - **مَلَكَة الإدراك والتحكم**: وبها يُلم الإنسان بكل ما يحتاج **للإدراك**، كالفرق بين المتقابلات (كالبُعد والقرب) ومعانى الأشياء، وتكوين الجمل. كما أنها المسئولة عن **التحكم**، الذى هو أساس نظام العقل البشرى، فهو الذى يستقبل المدخلات العصبية، وبناء عليها يصدر الإشارات للجوارح لتنفيذ ما استقر عليه رأى العقل.

وتسمى الملكات الثلاث الفطرية الأساسية السابقة **بالعقل الوهبى أو العقل المطبوع**، وهى مطلوبة لأمانة الخلافة فى الأرض. وبفقد أحد تلك الملكات لا يصير الإنسان عاقلًا، ويسقط عنه التكليف الشرعى.

أما الملكات الأربع التالية، فتعرف **بالعقل الكسبى**، فهى قابلة للتدريب والتنمية والارتقاء، بشرط توافر ملكات العقل الوهبى:

٤ - **مَلَكَة التأمل والتفكر**: ترقى هذه الملكة بالتفكير فى **الآفاق والأنفس** إلى مصاف العبادات ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]، فمن أعمل فكره فى آلاء الله ﷻ وصل إلى تنزيهه، لذلك ورد فى آيات كثيرة قانون إلهى مُحكم ﴿ ... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]. كما أوضحت الآيات القرآنية أن التفكر هو المراد من **ضرب الأمثال** فى القرآن الكريم ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر].

٥ - **مَلَكَة التدبر**: والتدبر أسمى من التفكر؛ فالتفكر هو التأمل فى الأشياء، فهو **كالمقدمات**، أما التدبر فهو استمرار التفكر فى الأمر حتى ينتهى إلى ما تصير إليه عاقبته، إذًا فهو **كالنتائج**، ويقول العرب: دُبُر كل شىء عقبه ومؤخره - وعَرفَ الأمر تدبرًا، أى عرفه بآخره ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

٦ - **مَلَكَة الحُكم والحكمة**: **والحكم** بداية تنتهى إلى حصول صاحبها على **الحكمة**، التى يَعرِف بها صاحبها أفضل الأوجه فى أمر ما، لذلك يقال رجل حكيم. كما أن من أوجه الحكمة «العدل» وهو وضع الشىء فى مكانه وفى موضعه، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة]. لذلك فملكة الحكم ليست للجميع، لكنها عطاء يُحَصِّله من أعمل ملكات عقله تفكرًا ثم تدبرًا، حتى توصله إلى ملكة «الحكمة» الرفيعة.

٧ - **مَلَكَة الرُشد**: وهى الذروة من ملكات العقل. فالرشد فهو **الهداية**، ونقيضه الغى **والضلال**. والطريق الأرشد هو الأقصر الذى يسرع بك إلى هدفك ومرادك. والرشيد من أسماء الله ﷻ، فهو الذى أرشد الخلق وهداهم ودلهم على ما يصلحهم. وفى ذلك

يقول الرشيد ﷺ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة]، ومن هاتين الآيتين نرى أن **الرشد أرقى من الحكمة**، فقد يصل إلى الحكمة من ليس على دين الإسلام، أما الرشد فهو الوصول إلى أن «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

وهذه الملكات الأربع الكسبية تسمو فوق العقل الوهبى، ولا يرقى إليها ـ أو إلى إحداها ـ كثير من الناس، وبقدر ما تستنير هذه الملكات تصبح سمة غالبة على العقل، فيقال لصاحبه رجل حكيم أو رجل رشيد.

موقف القرآن الكريم من العقل

ولكى نستخلص موقف القرآن الكريم من العقل، نعرض **ثلاثة نماذج من الآيات تدعونا إلى استخدام العقل وإلى التأمل**، نحسب أنها كافية لعرض تصورنا عن هذه القضية[1]:

أ ـ فى تأمل الظواهر الكونية، يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد].

---

(١) إن المتأمل لموقف الدارسين من قضية «**العقل فى أحاديث الرسول** ﷺ» يجد اتجاهين بارزين. الاتجاه الأول يرى أصحابه أن الأحاديث التى نُسبت إلى الرسول ﷺ فى العقل كلها موضوعة، ومن هؤلاء الإمام ابن الجوزى وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهم. والاتجاه الثانى يرى صحة بعض ما ورد فى أحاديث العقل، ووضعوا فى ذلك المؤلفات، ومن هؤلاء ابن أبى الدنيا، وداود بن المحبر وميسرة والسجزى.
وللخروج من هذا الموقف، رأينا الاكتفاء فى موضوع (نظرة الإسلام إلى العقل) بآيات القرآن الكريم ففيها من البيان والتفصيل ما يُنزل العقل منزلته.

ب ـ فى تأمل **الأنفس البشرية**، يقول تعالى:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

جـ ـ وفى **تأمل الظواهر الاجتماعية**، يقول تعالى:

﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الروم].

يمكن من تأمل الآيات الكريمة السابقة ـ وغيرها ـ أن نستخلص عدة **مفاهيم حول موقف القرآن الكريم من العقل**، أهمها:

أولًا: الثقة التى يوليها القرآن الكريم للحواس، بحيث تكون معطياتها هى منطلق التفكر والتدبر للاستدلال على الصانع المنعم. ويدل هذا على **وثاقة الارتباط بين الحواس والعقل**.

ثانيًا: الوضوح والبساطة فيما تأمر به الآيات من عمليات التفكير والتدبر والتعقل، كأنها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق أو بحث غامض أو تحليل معقد (كمنهج الفلسفة والمنطق وعلم الكلام)، وإنما هى تُدرَك إدراكًا مباشرًا **أشبه ما يكون بالبديهيات العقلية**.

ثالثًا: يمثل العقل ميزة فريدة وضعها الله ﷻ فى الإنسان؛ به يَعرف ثم يعمل، ومن هنا كانت مسئولياته.

رابعًا: أن العقل الذى يتحدث عنه القرآن الكريم ليس عقلًا مجردًا، أو جوهرًا قائمًا بذاته (كما يعتقد الفلاسفة)، وإنما هو **ظاهرة أو طاقة أو مَلَكة تمثل قدرة إلهية فى الإنسان، ليستعملها فى حدودٍ رسمها له ونبهه إليها**. لذلك فالعقل الإنسانى **عقل واع بطاعة الله** ﷻ، يلتزم طواعية بما يأمر به.

خامسًا: إن العقل البشرى لا يصلح أن يكون حَكَمًا فى كل شىء، ويتوجه هذا الحَجْر إلى ثلاثة أمور:

١ ـ أمـور لا يدركهـا العقل الإنسـانى، كالـذات الإلهيـة، فليس مما يعرفه العقل شـىء يماثلها، حتى يمكن أن يقيسها عليه.

٢ ـ أمور لا تدخل فى حدود الطبيعة البشرية المحدودة، كحقيقة الروح.

٣ ـ أمـور لا تلزم للنهوض بوظيفة الإنسـان فى الوجـود؛ كالغيب المحجوب عن العلم البشرى، ومثاله موعد يوم القيامة.

ويبين الحـق سبحـانه **كيـف ينبغى تَلَقِّى مثل هـذه الأمـور**، التى هـى فـوق مدركـات البشر:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وفيما عدا هذه الأمور، **فالعقل البشرى مدعو للتدبر والتفكر والاعتبار، والتطبيق فى عالم الضمير وعالم الواقع فى إطار منهج الإسلام**. وما من دين ـ أو منهج وضعى ـ **احتفل بإيقاظ الإدراك البشرى، وإطلاقه من قيود الوهم والخرافة، وصيانته فى الوقت ذاته من التبدد**، كما فعل الإسلام.

سادسًا: ينبغى أن يتحرك العقل من أجل **ثلاث غايات متداخلة متلازمة**؛ غاية إيمانية، وغاية معرفية، وغاية سلوكية حياتية. **ومجال حركته ثلاثة جوانب متداخلة**: الظواهر الكونية، والأنفس، والظواهر الاجتماعية.

إن **المنهج الذى يرسمه القرآن للعقل للنظر والتدبر**، هو الانتقال من الجزئيات إلى الكليات، أو **تحليل** الكليات إلى جزئياتها ثم الانتقال إلى **التركيب** (الخروج بمفاهيم جديدة)، أو أى طريقة أخرى يكتشفها العقل لنفسه دونما قيد عليه أو حَجْر. معنى ذلك أن القرآن الكريم **يحفز العقل البشرى إلى النظر فى الآفاق والأنفس والمجتمعات بأى منهج علمى**، مهما تعددت المناهج ومهما تَسَمَّت العلوم بأسماء متشابهة أو متباينة.

سابعًا: يقرر القرآن الكريم أن **من يعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم**.

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال].

كما يقرر القرآن أن جزاء **معطل العقل هو السعير**.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

ثامنًا: لم يكتف القرآن الكريم بِحَثِّ العقل على العمل وترك التقليد والجمود، لكنه أثار أمامه **عددًا من المسائل والقضايا الحيوية**، وعالجها كنماذج لما ينبغى أن يكون عليه أداء العقل. **وأهم هذه القضايا الاستدلال على خالق الكون دون وقوع فى المحظور؛ الذى هو البحث فى كنه الله وفيما اختص به نفسه**. ومن هذه القضايا أيضًا الخلافات الجوهرية مع أرباب الملل والنِحَل الأخرى، كدعوى ألوهية عيسى عليه السلام.

تاسعًا: ربما كانت أقرب الإشارات **لموضع عملية التعقل** هى قول الحق ﷻ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾**﴾ [الحج]، فالآية تشير إلى **أن للقلب (الذى فى الصدر) دورًا فى عملية التعقل**. وتتفق الآية مع معارفنا العلمية، إذ إن الشواهد العلمية الحديثة تتجمع منذ قرابة ثلاثة عقود على أن لهذا القلب دورًا فى المنظومة المعرفية والشعورية والإيمانية للإنسان[1].

وبعد هذا العرض لموقف القرآن الكريم من العقل، أتساءل: **أمن سوء الفهم أم من سوء القصد أن يُرمَى القرآن الكريم بأنه مُعَوِّق للفكر مقيد لحريته**، أو القول بأن الدعوة للنظر العقلى عند فلاسفة العرب كانت محاولة لتكميل القرآن فى الجانب الذى قَصَّرَ فيه؟! لا شك أن تلك دعاوى باطلة.

العقل بين القرآن واللغة

لجأ اللغويون إلى القرآن الكريم ليجمعوا من آياته المعانى المقصودة بالعقل، وكذلك المرادفات اللغوية التى تشير إليه وتتفرع منه:

يُطلق «**التعقل**» فى القرآن الكريم واللغة ويراد به معان كثيرة، منها: **التثبت فى الأمر، والإمساك والاستمساك، والامتناع**. يقال: عَقَلْتُ الناقة، إذا منعتها من السير. ومن هذه المعانى

(١) راجع الجديد حول هذا الموضوع فى كتاب «رحلة عقل»، للمؤلف ـ الفصل السادس. الناشر مكتبة الشروق الدولية ـ الطبعة السادسة ٢٠١٣.

الشد، يقال عَقَلَ الرجل، إذا كف نفسه وشدها عن المعاصى. وكل ما ذُكر من معان أخرى يندرج تحت ما سبق ولا يزيد عليه، ومن هذه المعانى:

الحِجْر: ورد مرة واحدة، وقيل للعقل حِجْر لكون الإنسان فى مَنَعَة به مما تدعو إليه نفسه ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ ﴾ [الفجر].

النُّهيْة: وردت مرتين بصيغة الجمع (النُّهى)، وهو العقل الناهى عن القبائح ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝٥٤ ﴾ [طه].

الأحلام: يقال فيها ما قيل فى الحِجر والنُهى ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ... ۝٣٢﴾ [الطور].

اللب: ورد بصيغة الجمع (أولو الألباب)، وهو العقل الخالص من الشوائب. واللب نوع راق من العقل البشرى، يمتاز بالرفعة والخصوصية ﴿... فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ۝١٠ ﴾ [الطلاق].

الفؤاد والقلب: قد يراد بـ «الفؤاد» و «القلب» العقل والإدراك والتفهم والاعتبار، وقد يراد بكل منهما معنى خاص به. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦ ﴾ [الحج] ـ ﴿... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦ ﴾ [الإسراء]. وقد ورد **القلب** فى القرآن الكريم أكثر من مائة وثلاثين مرة، وورد كل من **الفؤاد واللب** ست عشرة مرة.

وبالنظر فى الآيات الوارد فيها ما سبق من الاصطلاحات، يمكن أن نقول، إن العقل يطلق فى اللغة العربية ويراد به جانبان؛ **جانب سلوكى أخلاقى**، وهو الجانب العملى، وهذا الجانب يطلق عليه «الحِجْر» و «النُّهية» و «الحلم». **وجانب إدراكى نظرى**، وهو ما يراد بـ«اللب» و«القلب» و«الفؤاد».

ونفهم من سياق الآيات أيضًا أن **القلب واللب والفؤاد مستويات إدراكية يختلف بعضها عن بعض. فالفؤاد** هو غشاء **القلب، واللب** سويداؤه وحبته. ويمكن الإشارة إلى ما اُختص به القلب وهو الفقه، وما اُختص به اللب وهو التذكر، وما انفرد به الفؤاد وهو الرؤية.

من الجولة اللغوية السابقة، يتضح أن القرآن الكريم يتبنى مفهومًا يعتبر **أن الإنسان قد زُوِّد بجهاز إدراكى معرفى بالغ التعقيد، يقوم بوظيفتين رئيسيتين هما؛ الإدراك والمعرفة والعلم، والإيمان وما يتصل به من عاطفة ووجدان وإرادة**، وأن جوهر هذا الجهاز هو العمليات العقلية.

ونختم جولتنا مع العقل البشرى بشىء مما ذُكر حول قول الحق ﷻ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]: **مَن الذى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى؟**

هل الجسم؟: لا، فلا قِبَل له بهذا.

هل الروح؟ لا، فتوجهاتها واهتماماتها علوية.

إذًا، لا يكون إلا العقل.

٣ - القلـــب . . .

ينظر الإسلام إلى القلب فى الإنسان **كالملِك بين الرعية، وكالسيد بين أتباعه**، وبهذا وردت أحاديث رسول الله ﷺ التى منها:«.. ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»[1].

وفى اللغة، القلب: عكس القالب، فهو بمنزلة اللب من القشرة. والقلب: هو تحويل الشىء عن وجهه. وقَلَّب الأمور بمعنى بحثها ونظر فى عواقبها. وتَقَلَّب فى الأمور وفى البلاد أى تصرف فيها كيف شاء. ويقول العرب: جئت هذا الأمر قلبًا أى محضًا لا يشوبه شىء.

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله أتخاف علينا وقد آمنا بك وبما جئت به؟ قال: إن القلوب بيد الله ﷻ يقلبها»[2].

وقد يُعَبَّر بالقلب عن العقل، فالعرب تقول: ما قلبك معك؟ وما لك قلب؟، وأين ذهب قلبك؟ وهم يقصدون عقلك.

والقلوب فى القرآن الكريم على ثلاثة معانٍ:

الأول: **الروح أو النفس**، فى قوله تعالى ﴿... وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ...﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]، فعبر عن النفس الحية بالقلب.

الثانى: **العقل**، فى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق].

---

(١) من حديث النعمان بن بشير ـ متفق عليه.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده.

الثالث: **حقيقة القلب الذى فى الصدر**، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

ويبين الإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين ـ باب العلم ـ **أن القلب قلبان**، الأول هو ذلك العضو العضلى الصنوبرى الشكل القابع فى تجويف الصدر، وهو المسئول عن ضخ الدم، والثانى هو القلب الذى تُنسب إليه الوظائف المعرفية والشعورية والإيمانية. ثم يبين أن بين هذين القلبين علاقة وتَعَلُّق.

وفى القرآن الكريم، لم يأت ذكر للقلب كعضو محورى فى الدورة الدموية ومسئول عن ضخ الدم، بينما جاء ذكره ١٣١ مرة مشيرًا إلى **وظائف عاطفية** Emotional أو **عقلية منطقية** Rational [١].

وظائف القلب العاطفية والمنطقية

إذا نظرنا إلى **الوظائف العاطفية** التى تُنسب للقلب، كما وردت فى آيات القرآن الكريم، وجدناها **تتأرجح بين الخير والشر**. فمن أمثلة الأوصاف الخيرة، **وصف القلب بأنه** «قلب سليم»[٢]، و«قلب منيب»[٣]، و«قلب وَجِل»[٤]، و«قلب مُخْبِت»[٥]، و«قلب خاشع»[٦] و«قلب لين»[٧]. كما تصف الآيات القرآنية القلب بأنه **موضعًا لـ**«التقوى»[٨] و«الإيمان»[٩]

---

(١) عن كتاب «**وظائف القلب بين القرآن والطب**» تأليف أ.د. فؤاد يحيى أحمد ـ أستاذ التشريح بكلية الطب ـ جامعة عين شمس.

(٢) ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء].

(٣) ﴿ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ق].

(٤) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال].

(٥) ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج].

(٦) ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد].

(٧) ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر].

(٨) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج].

(٩) ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [الحجرات].

و«السَكينة»[١] و«الرأفة والرحمة»[٢]، و«الاطمئنان»[٣] و«الهداية»[٤] و«الخير»[٥]. كما يصف القرآن الكريم القلب بأنه **قابل لـ** «التأليف مع القلوب الأخرى»[٦] ولـ «التطهير»[٧] ولـ«الإصغاء = الاستماع والاستجابة للحق»[٨] وقابل لـ«الامتحان»[٩].

ومن **صفات الشر** التى يمكن أن تصيب القلب، كما جاءت فى القرآن الكريم؛ **إمكانية اتصافه بـ**«الغلظة»[١٠] و«الغفلة»[١١] و«الغيظ»[١٢] و«القسوة»[١٣] و«الغل»[١٤] و«الارتياب»[١٥] و«النفاق»[١٦] و«إنكار الحق»[١٧] و«اللهو»[١٨] و«التعصب»[١٩]

---

(١) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الفتح].

(٢) ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد].

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].

(٤) ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [التغابن].

(٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال].

(٦) ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران].

(٧) ﴿ ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٨) ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ ... ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم].

(٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجرات].

(١٠) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ... ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

(١١) ﴿ ... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف].

(١٢) ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة].

(١٣) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ ... ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة].

(١٤) ﴿ ... وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

(١٥) ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة].

(١٦) ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة].

(١٧) ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النحل].

(١٨) ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ ... ﴿٣﴾ ﴾ [الأنبياء].

(١٩) ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ... ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح].

و«التشتت»[1]. وفى مجال الشر أيضًا يصف القرآن الكريم بعض القلوب بأنها **قابلة** لـ«المرض»[2] و«الزيغ عن الحق»[3] و«تقبل الضلال والتمسك به»[4] و«اكتساب الإثم»[5] و«الارتعاب من الحق»[6] و«الاشمئزاز من الحق»[7] و«اكتساب المعاصى»[8] و«تعمد الخطأ»[9] و«الانشغال عن الحق»[10] و«الغرق = غمرة»[11] و«الحَجْب = الرين والختم والأَكِنة»[12] و«التكبر والتجبر»[13].

وتنقسم **الوظائف العقلية المنطقية** التى ينسب القرآن الكريم إلى القلب القيام بها، إلى ما هو «خير» وما هو «شر». ومن أمثلة **ما هو خير**؛ «تَقَبُّل الوحى»[14] و «التفقه»[15] و «عقل

(١) ﴿ ...تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الحشر].

(٢) ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ۖ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[البقرة].

(٣) ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾[آل عمران].

(٤) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾[النساء]، ﴿ ...رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[يونس].

(٥) ﴿ ...وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾[البقرة].

(٦) ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ ...﴿١٥١﴾ ﴾[آل عمران].

(٧) ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ...﴿٤٥﴾ ﴾[الزمر].

(٨) ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾[البقرة].

(٩) ﴿ ...وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾[الأحزاب].

(١٠) ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[المؤمنون].

(١١) ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾[المؤمنون].

(١٢) ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[المطففين]، ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[البقرة]، ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ...﴿٥﴾ ﴾[فصلت].

(١٣) ﴿ ...كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[غافر].

(١٤) ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[البقرة].

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف].

الأمور»[1] «والتدبر»[2] و«التذكر»[3] و«محل النية: الحسنة والسيئة»[4]. ومن أمثلة **الوظائف العقلية السيئة؛** «العمى عن الحق»[5] و«التمرد على الحق»[6] و«الاجتماع على الباطل»[7] و«تبييت الباطل»[8].

سبحان الله، أيقوم القلب بكل هذه المهام، فى المجالات العاطفية والعقلية المنطقية، الخَيِّر منها والشرير؟ **أكاد أجده مسئول عن سلوك الإنسان كله،** ذلك السلوك الذى يدخله الجنة أو يورده المهالك. والغريب ـ بعد ذلك ـ معظم المهتمين بدراسة الذات الإنسانية، سواء من الأقدمين أو المعاصرين، يسقطونه من تصنيفاتهم، ولا يعدونه عنصرًا من عناصر الذات الإنسانية!

أقسام القلوب

تبعًا للصفات التى ذكرها القرآن الكريم، والتى طرحنا فيما سبق أمثلة منها، **يمكن تقسيم القلوب إلى أربعة أنواع:**

١ - قلوب المؤمنين:

جاء وصف قلوب المؤمنين فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بصفات عديدة، مدخلها **الطُّهر، فشهادة التوحيد** تطهر القلوب من رجس الوثنية ومن دَنَس الشرك، فإذا أقرت القلوب بالإيمان بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله» كان فى ذلك حياتها ونورها، فإذا قام العبد **بالطاعات صُب فى قلبه أنوارها، فازداد لينًا، وخشوعًا، وإخباتًا، ووجلًا لله رب العالمين.**

---

(١) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

(٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد].

(٣) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق].

(٤) ﴿ ... وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الأحزاب].

(٥) ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

(٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال].

(٧) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [البقرة].

(٨) ﴿ ... وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران].

٢ - قلوب الكفار والمنافقين:

وهذه القلوب تتدرج فى الضلال، حتى تصبح قلوبًا «**أقسى من الصخر**»، وذلك لمرضها وبُعدها عن الإيمان، وسيرها فى طريق الضلال. ومن هذه المراحل أن تصبح القلوب «**فى غمرة**»[1]، كأنها غرقت فى بحار اللهو، والغفلة، والحيرة، والضلال. فإذا امتلأت هذه القلوب بالظلام طفح ذلك على خارجها، وتبدأ آثار ذلك بـ«**الرين**»، فإذا ازداد، «**طبع**» الله عليها، فصارت «**فى غلاف مختوم**». ثم جاء وصف «**الأكنة**» وهى الحجب الكثيفة الحائلة بين القلب وبين الهدى، وهذه الصفات تدل على أن مرض هذه القلوب **صار خطيرًا لا شفاء له**، فالظلام عم القلب داخله وخارجه، مما يُسلمه إلى الوصف التالى:

٣ - القلب الميت:

وكما أن الأجسام تمرض وتموت، فكذلك القلوب، **تمرض بالجهل وتموت بالكفر والنفاق**، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الروم]. **والقلوب الميتة تعمى عن رؤية الحق**: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج] **هذا من ناحية الاعتقاد**، أما **من ناحية التعامل مع الدنيا**، فالقلب الميت واقف عند شهواته تملكته الدنيا فأصبح أسيرًا لها، استذله الهوى فصار عبدًا له، واحتنكه الشيطان فصار له تابعًا وخادمًا، واتخذه وليًّا ونصيرًا، **فهو عابد لشيطانه فى الحقيقة**.

وعن القلوب الميتة **يقول صاحب الحِكَم**[2]: **موت القلب سببه ثلاثة أشياء**: حب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، وإرسال الجوارح فى معاصى الله. **وعلامة موته ثلاثة أشياء**: عدم الحزن على ما فات من الطاعات، وترك الندم على ما فُعِل من الزلات، وصحبة الغافلين الأموات. **وسبب حياة القلب ثلاثة أشياء**: الزهد فى الدنيا، والاشتغال بذكر الله، وصحبة أولياء الله.

٤ - القلب المريض:

قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ... ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ ... ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة].

(١) الغمرة هى الماء الكثير المُغرِق.
(٢) ابن عطاء الله السكندرى، صاحب الحكم العطائية.

ويصف حذيفة بن اليمان ﷺ القلب المريض بأنه: «**قلب تمده مادتان، مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لِما غلب عليه منها**». ويشرح ابن القيم ﷺ هذا الوصف قائلًا: «ففيه من محبة الله تعالى، والإيمان به والإخلاص فى تحصيلها، كما أن فيه من الحسد، والكِبر، والعُجْب، وحب العلو، والفساد فى الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه. لذلك فهو ممتَحَن بين داعيين، **داعٍ يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة**، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا، فهذا القلب إما إلى السلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى»[1].

هل القلب مجرد مضخة للدم؟

ما ذكرناه من وظائف معرفية وشعورية وإيمانية للقلب (منها ما هو خير ومنها ما هو شر) إنما هو **نماذج** من كثيرٍ ورد فى القرآن الكريم. وهى فى نفس الوقت تمثل كمًّا كبيرًا من **الوظائف العليا التى اعتدنا أن ننسبها إلى المخ فقط**، فهل كلمة العلم حاسمة فى أن القلب لا يشارك فى هذه المهام، **أم أن هناك جديدًا فى هذا المجال؟**

نجيب عن هذا السؤال المهم، بأنه خلال الربع الأخير من القرن العشرين حدث **انفجار معرفى فى علوم القلب، فقد توالت الاكتشافات التى أظهرت أن القلب ليس مجرد مضخة للدم وفقط، بل إنه يشارك فى نشاطات الإنسان المعرفية والشعورية**. ويتم ذلك من خلال التأثير على قيام المخ بتلك المهام، أى أن علاقة القلب بالمخ ليست علاقة العبد بالسَيِّد، بل إن **السيادة بينهما تبادلية**، هذا بالإضافة إلى دور يمارسه القلب **بصورة مباشرة مستقلة عن المخ**. ويمارس القلب مهامه تلك من خلال **أربع آليات**: كهرومغناطيسية، وعصبية، وكيميائية (هورمونات)، وميكانيكية[2].

وبالرغم من صدور العديد من الدراسات حول هذا الموضوع من عدد من المراكز والشخصيات العلمية المحترمة، فإن ما تجمع حتى الآن هو **شواهد** تفتح الباب أمام تقبل فكرة وجود دور للقلب فى المهام المعرفية والشعورية والإيمانية. **ولا شك أن المجال ما زال مفتوحًا للمزيد من الأبحاث قبل وضع منظومة علمية متكاملة حول هذا الموضوع.**

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية.

(٢) لتفاصيل هذا الأمر وأدلته العلمية، راجع كتاب «رحلة عقل» الطبعة السادسة ـ للمؤلف، الفصل السادس ـ مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣.

الـــروح[1] ...

الروح **أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها**، وهى **خصوصية الإنسان** التى يتميز بها على جميع الكائنات. وقد **فتح نفخ الروح للإنسان المجالات العلوية**، فأصبح قادرًا على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن، **لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيدًا عالميًّا كونيًّا أبديًّا**. وفى ذلك يخاطب الحق ﷻ ملائكته قائلًا: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]، وبهذه الخصوصية استحق الإنسان الخلافة من الله ﷻ فى الأرض. وقد أدرَكَت خصوصية الروح جميع الديانات والحضارات اللامادية حتى اعتقد الكثيرون أنها هى (وحدها) جوهر الإنسان.

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

إن قول الحق ﷻ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] لا يعنى النهى عن التفكر والبحث فى الروح وماهيتها، لكن الآية تشير إلى أننا لن نصل إلا إلى القليل عنها، وقد فهم الكثير من العلماء هذا المعنى، فأفردوا كتبًا للحديث عن الروح، وربما كان من أشهرها كتاب «الروح» لابن قيم الجوزية. وسنعرض الآن ما فى أيدينا من هذا القليل:

أولا: لا شك أن أى **تعريف للروح** سيكون قاصرًا وعاجزًا عن نقل تصور كامل عنها للإنسان، لذلك نكتفى بالقول إن **الروح مَلَكَة لا مادية، تتعلق بجسم الإنسان بأسلوب يختلف من حين لآخر، وهى باقية خالدة بعد موت الجسد.**

والدليل على **بقاء الروح بعد الموت**، قول الحق ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام].

أى أننا مردودون إلى الله ﷻ بعد موت الجسد.

---

(١) أُطلق **لفظ الروح** فى المقام الأول على النفخة الإلهية فى آدم ثم فى الجنين، ثم أُطلق بعد ذلك بأربعة معان أخرى؛ فهو جبريل عليه السلام، وهو الوحى أو القرآن، وهو آية من آيات الله فى خلقه، وهو رحمة الله ﷻ.
وأشير هنا إلى ما ذكرته فى نهاية حديثى عن الجسد، من أن **الروح ليست هى مصدر الحياة**، ولكن الحياة ظاهرة بيولوجية تشترك فيها جميع الكائنات الحية.

ويرى الإمام الغزالى؛ أن **معرفة حقيقة الروح ممكنة** للخاصة من الأولياء والراسخين فى العلم، ويُحَرم على من له إلمام بشىء من ذلك التصريح به لغير أهله.

ثانيًا: استشهد الفلاسفة المسلمون **القائلون بوحدة الوجود** على مفاهيمهم (الخاطئة) بقول الحق ﷻ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [ص]، ويعتبرون أن إضافة الروح إلى الله ﷻ «روحى» تعنى أنها جزء من ذات الله (حاشا لله). ولدفع هذا الرأى نقول: إن الإضافة نوعان؛ **إضافة صفات لا تقوم بنفسها**، كأن أقول علمى وكلامى وسمعى ويدى، وهذا المعنى ننكره فى هذا الموضع، والإضافة الأخرى **إضافة أعيان منفصلة**، كأن أقول بيتى ورسولى، وهذه هى الإضافة المقصودة فى «روحى»، والغرض منها التخصيص والتشريف والتكريم. ومن هذا نستنتج أن الروح ليست قديمة أزلية، فلا قديم أزلى إلا الله، لكنها **مخلوقة حادثة**، فـ ﴿ ... ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرعد].

ثالثًا: عن **أوان نفخ الروح فى الإنسان**، يقول الحق ﷻ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]، معنى ذلك أن نفخ الروح يتم بعد مرحلة معينة من نشأة جسد الجنين. ومن هذه الآيات نفهم أن الإنسان يكون **مشابهًا للثدييات فى أطوار مبكرة من نشأته**، إلا أنه فى مرحلة معينة، يختلف عنها ويصبح كائنًا متميزًا (خلقًا آخر)، نتيجة لنفخة الروح التى تتم بعد انقضاء أربعة أشهر من حياتنا الجنينية، كما جاء عن رسول الله ﷺ(١).

لذلك يرى الكثيرون من الفقهاء **أن الجنين قبل تمام الأربعة أشهر الأولى فى الرحم لا يكون بشرًا**، وإذا سقط ومات لا يُصلى عليه ولا يُطلق عليه اسم. أما بعد نفخ الروح فيكون بشرًا، وإذا أُجهض ومات يُطلق عليه اسم ويُصلى عليه قبل دفنه، لأنه سيُبعث يوم القيامة.

رابعًا: تختلف الآراء حول **تعلق الروح بالجسم** إلى مجموعتين، الأولى ترى أن الروح «**متحيزة**» فى الجسم، تجرى من الخلايا مجرى الدم. وترى المجموعة الأخرى أن الروح «**غير متحيزة**»، لكنها تتواصل مع الجسم كما تتواصل الشمس بأشعتها مع الأرض.

---

(١) فى صحيح البخارى ومسلم، حديث رواه زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ: «إن أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله مَلَكًا، يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...».

وسواء كانت الروح متحيزة أو غير متحيزة، فإن لها تعلق بالجسم يختلف من حين لآخر، **على ست هيئات فى فترات متتالية:**

١ - يبدأ **تعلق الروح بالجنين** منذ نهاية الشهر الرابع من الحمل، كما ذكرنا.

٢ - **تعلق الروح بالجسد بعد الولادة**، وهو تعلق أتم وأكمل من تعلقها بالجنين، وتتواصل الروح مع الوجود عن طريق الجسم، وعن طريقه تتعلم طوال حياته الدنيوية.

٣ - **تعلق الروح بالجسد أثناء النوم**: عند النوم تفارق الروح الجسد (بشكل ما)، وتُرَد إليه (بشكل ما) عند الاستيقاظ. ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ... ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر][1].

٤ - **تعلق الروح بالجسد بعد الوفاة**: تظل الروح متعلقة بالجسد بدرجة ما وبشكل لا يعلمه إلا الله ﷻ.[2]

٥ - **تعلق الروح بالجسد عند البعث**: عندما يبعث الله تعالى الأجساد التى فى القبور، تنطلق كلُّ روح إلى جسدها وتتعلق به. والإنسان فى آخرته يجادل عن نفسه، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت روحه ونفسه وعقله على اتصال وثيق بجسده وقت البعث والحساب، انظر إلى قول الله ﷻ ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس].

٦ - والصواب أن **الروح ترافق صاحبها فى الجنة، إن كان من أهل الجنة، ولا ترافقه فى النار إذا كان من أهل النار.**

خامسًا: إذا كنا نتلاقى مع مَن نُحب ـ ومع مَن نكره ـ فى هذه الدنيا، بالأجساد والأرواح، **فهل تتلاقى الأرواح إذا فارقت الأجساد؟**

---

(١) للمزيد عن علاقة الروح بالجسد أثناء النوم، انظر الفصل التالى بعنوان «أنا... والموت».

(٢) يُستدل على ذلك بحديث صحيح مسلم فى قتلى بدر من المشركين حين كلمهم رسول الله ﷺ قبل دفنهم فى القليب وقال لهم: «هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقًا، فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقًا» فقال له عمر: كيف تكلم أجسادًا لا أرواح فيها، فقال ﷺ «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يردوا عَلَىَّ شيئًا». كما ورد عن رسول الله ﷺ «أن الميت يسمع وقع أقدام مشيعيه»، عن حديث رواه الإمام مسلم.

١ - **تلاقى أرواح الموتى**: ذكر الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه «الروح»، أن أرواح الموتى **تتلاقى وتتزاور وتتذاكر**. وقيل للنبى ﷺ: ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا. فإنك إذا مِتَّ، رُفِعْتَ فوقنا فلا نراك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

٢ - **تلاقى أرواح الأموات وأرواح الأحياء**: أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأنهم يستبشرون بما ينقله لهم من لم يلحقوا بهم (نقلًا عن رسول الله ﷺ) من أنه لا خوف عليهم ولا حَزَن. وذلك يعنى أن **أرواح الأموات تتلاقى مع أرواح الأحياء**، وغالبًا ما يكون ذلك عند نوم الأحياء ومفارقة أرواحهم لأجسادهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران].

كذلك تُعتبر **الرؤى الصادقة** من أدلة التقاء أرواح الأحياء والأموات فى المنام، فيسأل الحىُ الميتَ، فيخبره بما لا يعلم. والرؤى الصادقة أقسام، منها إلهام يلقيه الله تعالى فى قلب العبد فى المنام، ومنها التقاء روح النائم بأرواح الموتى أو الأحياء من أهله ومن غيرهم. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ كثير من الأحاديث الصحيحة التى تتعلق بالرؤى والأحلام.

سادسًا: إذا كان **النفى أحد وسائل المعرفة**، نشير إلى بعض **المفاهيم الخاطئة** عن الروح، والتى ذكرها أبو النصر السراج الطوسى[1] فى كتابه «اللُمع»، عسى أن تقربنا من إدراك الحقيقة:

«وقد غلط أقوام وتاهوا فى الحديث عن الروح؛

فقوم قالوا: الروح نور من نور الله، فتوهموا أنه نور ذاته فهلكوا.

وقوم قالوا: الأرواح مخلوقة، وروح القدس من ذات الله تعالى.

وقوم قالوا: أرواح العامة مخلوقة، وأرواح الخاصة ليست بمخلوقة.

(١) اللُمع لأبى النصر السراج الطوسى (٥٥٤ ـ ٥٥٥ هـ)، أعد الكتاب الإمام الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله. وفى مقدمة الكتاب، يصف الدكتور عبد الحليم محمود السراج الطوسى بأنه: أعظم مؤلف صوفى فى تاريخ التصوف.

وقوم قالوا: الأرواح قديمة، إنها لا تموت ولا تعذب ولا تبلى.

وقوم قالوا: الأرواح تتناسخ من جسم إلى جسم.

وقوم قالوا: الروح خَلق من النور.

وقوم قالوا: الروح روحانية خُلقت فى الملكوت، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت.

وقال آخرون: الروح روحان: روح لاهوتيه، وروح ناسوتيه».

ثم يضيف الطوسى، «والذى عليه أهل الحق ـ والله أعلم ـ **أن الأرواح مخلوقة، وهى أمر من أمر الله، ليس بينها وبينه تعالى سبب ولا نِسبة، غير أنها من ملكه وطوعه وقبضته، غير متناسخة، ولا تخرج من جسم فتدخل غيره، وتذوق الموت كما يذوق البدن، وتنعم بتنعيم البدن، وتُعذب بعذابه، وتُحشر فى الجسد الذى تخرج منه**».

النفس . . .

النفس عنصر من عناصر الذات الإنسانية الخمسة، ولا يخلو فيلسوف من كلام عنها، لأنها **أقرب الأشياء إلينا، ومع ذلك فهى شديدة الغموض**. وقد اختلف الفلاسفة هل النفس من قوى العقل، أم أن العقل من قواها. واختلفوا؛ هل النفس هى الروح أم أنها جوهر قائم بذاته، واختلفوا.... واختلفوا... واختلفوا...

والنفس فى القرآن الكريم **وجود غير مادى**. وإذا كانت **أسرارها من الغيبيات**، فإن القرآن الكريم يخبرنا الكثير عن دورها وكيفية التعامل معها فى ٢٩٥ موضعًا، فكان لها نصيب من الذِكر أكبر من الروح بكثير. وبالرغم من ذلك، **تتباين آراء علماء الدين** ـ مثل الفلاسفة ـ حول النفس تباينًا كبيرًا؛ لذلك سنركز هنا على الخطوط العريضة حولها، وعلى من يبغى المزيد الرجوع إلى الكتب المتخصصة.

النفس والروح؛ ثنائية أم واحدية؟

يشير القرآن الكريم (والأحاديث النبوية الصحيحة) إلى النفس بمعنيين؛ **الإنسان ذاته**، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة]، والمعنى الثانى ـ وهو المقصود فى هذا المبحث ـ أن النفس **أحد**

المكونات الخمس للذات الإنسانية. وفى هذا المعنى انقسم العلماء إلى قسمين رئيسيين؛ يرى أحدهما أن **النفس هى الروح** بعد أن نُفِخَت فى الجسد، فاكتسبت صفات أخرى ودورًا آخر. ومن أوائل من تبنوا هذا الطرح الفقيه المالكى والعالِم اللغوى «أبو قاسم السُهيلى»[1]. فهو يرى أن الروح عندما لابست البدن صارت نفسًا، أى صارت جوهرًا آخر، وصارت قابلة للمدح والذم، بخلاف الروح التى هى خير مطلق. ويُشَبِّه الإمام السهيلى تحول الروح إلى نفس بالماء، إذا سُقِىَ به نبات العنب صار عصيرًا للعنب، يتفق مع الماء فى أوجه، ويخالفه فى أوجه. لذلك **فالروح تسمى نفسًا (مجازًا) باعتبار ما ستؤول إليه، والنفس تُسمى روحًا (مجازًا) باعتبار ما نشأت عنه.**

أما الرأى الثانى، فيرى أن **النفس جوهر مختلف عن الروح**، وأنها قد نُفخت فى الجسد عندما نُفخت الروح، كما أنها تفارقه مع مفارقة الروح. وتبعًا لهذا المفهوم تتحرك النفس بين قطبى الإنسان؛ سماء الروح وأرض البدن، أى أن **الروح والبدن مجالان تتحرك بينهما النفس** (والعقل أيضًا).

وتحتمل آيات القرآن الكريم الرأيين السابقين، **رأى السهيلى ونظرية المجالين**، ولكنها أكثر انسجامًا مع الرأى الأول، **فالقرآن الكريم ما أن يذكر الروح ونفخها فى البدن لا يعد يذكرها مرة أخرى، بل حديثه دائمًا عن النفس**. كذلك ليس هناك آية واحدة تذكر أن الروح تُقبَض، بل **القبض يقع دائمًا للنفس**، وما جاء فى بعض الأحاديث عن قبض الروح يخالفه القرآن الكريم.

وسواء كانت الروح والنفس ذواتا أصلين مختلفين من البداية، أو كان أصل النفس هو الروح بعد أن نفخت فى الجسم، فقد صار بينهما اختلافًا بَيِّنًا. **فالروح خير مطلق بينما قد تكون النفس أمارة بالسوء، وقد تسعد بلذات الدنيا بينما تسعد الروح وتتألق بالحرمان منها. وإذا كانت النفس هى مستودع مشاعر الإنسان ورغباته ودرجة إيمانه، فالروح هى سر حقيقة الإنسان ووعيه وخلوده.** وأخيرًا، إذا كانت **النفس تُحاسَب وتَجازىَ يوم القيامة**، فالروح لا تحاسب ولا تجازى، فهى خير محض.

وإذا أردنا أن نحدد الدور الأساسى للنفس تجاه منظومة الذات الإنسانية، لخصنا ذلك فى جملة قصيرة، وهى أن:

(١) طرح هذا الفهم فى كتابه «نتائج الفكر»، قبل ابن القيم بثلاثمائة سنة، ونقله عنه ابن كثير، ويتبنى هذا الرأى الإمام الشيخ الشعراوى.

النفس محل التكليف والاختيار

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿...لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ... ﴿٧﴾﴾ [الطلاق]، **فالنفس هى محل التكليف الذى لا يكون إلا على قدر ما آتاها الله من الوسع ومن العطاء.** ولما كانت النفس هى المُكَلَّفَة صارت **المسئولة عن تصرفات الإنسان من أقوال وأفعال**، وعلى قدر ما كسبت واكتسبت يكون الثواب والعقاب، كما تشير إلى ذلك الآيات المباركات: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ ... ﴿١٧﴾﴾ [غافر]، ﴿... وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[آل عمران].

إن الإنسان **إذا عرف نفسه، وأدرك قدرها، فقد حاز الخير كله**، وإذا غفل عن حقيقتها، فقد ظلمها، وأوردها موارد التهلكة، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]، ﴿... فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ ... ﴿١٠٨﴾﴾[يونس].

ثم إن **من اهتدى إلى صفات نفسه من العبودية، وسلك بها لمعرفة كمالات الربوبية، وَجَّه الله ﷻ نعمه إليه.** فإذا علم الإنسان أنه متصف بالفقر وشدة الحاجة، أدرك أن الله تبارك وتعالى غنى عن العالمين. ومن علم أنه متصف بالضعف وقلة الحيلة، أدرك أن الله هو القوى وأن جميع خلقه مفتقر إليه. ومن كانت صفته الذل أيقن أن العزة لله وحده ولرسوله وللمؤمنين. ومن كانت صفته الخوف علم أن الأمن عند الله، وأن الطمأنينة والسكينة فى تمام العبودية لله. ومن أدرك أن الفناء سيلحقه، أيقن أن الباقى هو الله وحده. وبذلك صار: «**من عَرِفَ نفسه عَرِفَ ربه**»، **فمن اهتدى فإنما يهتدى لصفات نفسه ومعرفة ربه، ومن ضل فإنما يضل عن نفسه وعلى نفسه، فيهوى بها فى الجحيم.**

علاقة النفس بعناصر الذات الإنسانية

إذا أردنا أن نضع تصورًا **إسلاميًّا لعلاقة النفس بباقى عناصر الذات الإنسانية**، وجدنا أن الدنيا قد مُلئت بالمتاع الذى تعددت صوره، وتوجهت إليه النفس. فالعين تشاهد وتراقب صور الجمال المرئى، والأذن تستقبل صور الجمال السمعى، وكذلك الذوق، واللمس، وحاسة الشم، **وتصب جميع هذه المشاهدات فى النفس فتنفعل بها وتتأثر، فيُنتِج ذلك «عزمًا» تبعًا لهوى**

النفس ورغباتها، وتمرره «كخاطر» إلى القلب. والقلب إما قلب سليم فى حضور مع الله وعلى ذكر وطهارة، أو قلب مُغَلَّف بآثار الذنوب وظلمات المعاصى. ويصل ما تجمع فى القلب من خواطر النفس **إلى العقل**، فإما يجد القلب عند العقل ما يعقل به النفس ويردها عن هواها، أو يجد تشجيعًا وتأييدًا لخاطر النفس، وتذليلًا للصعاب التى تعترض طريق المعصية، ومن هنا **ينتقل العزم إلى مرحلة «إرادة» ثم «تنفيذ» الفعل، فتأتى الأوامر والتعليمات من العقل مطابِقة لما استقر عليه القلب.**

وملخص ذلك **أن الإنسان يعلو على جسده بنفسه ثم قلبه، ويعلو عليهما بعقله، ويعلو على عقله بروحه**، وتظل هذه العناصر المكونة للذات الإنسانية الواحدة **فى تدافع لا ينفصم أبدًا.**

صور من معاصى النفس

ويبين القرآن الكريم، **أن النفس تقترف العديد من المعاصى، ينجح العقل فى كبح بعضها، ولا ينجح مع البعض الآخر.** وعقيدتنا أن الحسنة عطاء من الله، بينما النفس مصدر السيئات، وهى التى تكتسبها؛ قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ... ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]، وبالتالى يعود الوزر عليها؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ ... ﴿١١١﴾﴾ [النساء].

فالنفس هى **محل الكبر والعتو**؛ قال تعالى: ﴿... لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان]. والنفس **محل الهوى والرغبات والشهوات**؛ قال تعالى: ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ... ﴿٢٣﴾﴾ [النجم]. لذلك فهى التى تسول لصاحبها المعاصى؛ قال تعالى: ﴿... وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه]. كذلك فهى **أداة المراودة**؛ قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ... ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف].

ومن أشد الآثام **ظلم المرء لنفسه، والشرك أكبر الظلم**؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ... ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف]. **وتعدِى حدود الله** من أكبر صور ظلم المرء لنفسه، قال تعالى: ﴿... وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ... ﴿١﴾﴾ [الطلاق].

وكذلك نجد **النفس شحيحة بخيلة**؛ قال تعالى: ﴿... وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ... ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]، وقد جعل الله تبارك وتعالى النجاة فى توقى الشح؛ قال تعالى: ﴿... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

أثر الطاعات على النفس

تعود كل أعمال الخير التى يتزكى بها المرء على نفسه؛ قال تعالى: ﴿ ...وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر]. كذلك فإن **شكر الإنسان لنعم الله** ﷻ يعود أثره على النفس، قال تعالى: ﴿ ...وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل].

وثواب **الجهاد** وأثره لا يعود على الأمة الإسلامية ككل ولا على عزة الأوطان فقط، وإنما يعود أيضًا على النفس، فللنصر ورفعة الإسلام حلاوة، ولهزيمة الباطل وذل أتباعه فرحة، كما أن للمجاهدين المكانة العليا والمنزلة السامية فى الآخرة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

وكأن المسلم قد اشترى جنة الله تعالى ببيعه نفسه وماله لله تعالى؛ يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ ...﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة]، فالشكر، والجهاد فى سبيله، وتزكية النفس عن أدرانها، والإيثار، تجعل الإنسان يشرى[1] نفسه ابتغاء مرضات الله، ولذلك كان ثواب تلك الطاعات الجنة.

سُنة الله مع النفس البشرية

لم يترك الله تبارك وتعالى الإنسان منفردًا ضعيفًا مع نفسه تأمره بالسوء فيستجيب لها، بل لقد **وضع فيه فطرة البحث عن الحق وأخذ عليه العهد بالإقرار بالربوبية، ثم عززه وأنار له الطريق، وأرسل له الأنبياء والمرسلين**، يلقون الضوء على جوانب الحياة، حتى يأخذ الإنسان بأسباب نجاته، ولا يتوه فى شعب الضلال، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ ...﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام].

كما بَيَّن الله تبارك وتعالى للإنسان **ما يرتضيه لعودة المذنبين إلى عفوه وكرمه بعد إعراضهم عنه**، فجعل التوبة **والاستغفار** من آكد الطاعات المقربة إليه والتى تفتح أبواب المغفرة والرحمة على عباده؛ فيقول عَزَّ مِن قائل: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء]، كما لم يُقَنِّط الله ﷻ **من أسرف على نفسه**، ولم يرده عن بابه، ولم يطرده من جنانه، بل جعل له سبيلًا إلى مغفرته ورضوانه؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ

(١) يشرى بمعنى يبيع، أى عكس يشترى.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر].

عوالم ومراتب النفس

كتب **الإمام ابن قيم الجوزية** عن النفس، وقال: إن للنفس أربع دور، كل دار منها أعظم من التى قبلها:

الدار الأولى: الجنين فى بطن أمه.

الدار الثانية: الدار الدنيا، التى تكتسب فيها النفس الخير والشر، والسعادة والشقاء.

الدار الثالثة: دار البرزخ، وهى أوسع من دار الدنيا وأعظم.

الدار الرابعة: الدار التى لا دار بعدها، دار القرار والأجر، وهى الجنة أو النار.

والله تعالى ينقل النفس من هذه الدور، دارًا بعد دار، ولها فى كل دار حُكْم وشأن، غير شأن الدار الأخرى.

فالنفس فى **دار الحياة الدنيا**، تكتسب سبع صفات، تدخل فى صفة وتخرج من أخرى، تتدرج من مرتبة إلى مرتبة، أو قل سبعة أحوال، تخرج من حال وتدخل فى حال أخرى.. وهذه **الأحوال السبع**: الأمَّارة، واللوَّمة، والمُلهَمة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية، والكاملة. أما **فى البرزخ** فليس للنفس هذه الأحوال والصفات. وأما **يوم القيامة** فتكون نفسًا مطمئنة أو راضية مرضية، وهى نفوس أصحاب الجنة، أو تكون نفسًا مجادِلة، تجادل عن نفسها، وهذه نفس أهل المعاصى.

وقد فَصَّل القرآن الكريم ثلاثًا من هذه المراتب، وهى:

١ - **النفس الأمارة بالسوء**: قال تعالى عنها: ﴿... إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ... ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]، وهى أرذل أنواع النفس، فهى تدفع صاحبها إلى الإضرار بالغير، والإفساد فى الأرض. وصاحب النفس الأمارة بالسوء إنسان **صار الشيطان له قرينًا**، يلهيها ويزين لها الخطأ، ويُكَرِّه لها الصواب، ويفرش لها طريق طاعة الله بالشوك، ويفرش لها طريق المعاصى بالورد، فصارت تطيعه ولا تعصى له أمرًا.

٢ - **النفس اللوامة**: قال تعالى عنها: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة]، وهى نفس أشرف من الأولى؛ لأنها تندم وتلوم صاحبها على ما صدر منه من المعاصى.

٣ - **النفس المطمئنة**: قال تعالى عنها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨﴾ [الفجر]، وهذه أشرف النفوس الثلاثة وأعلاها؛ لأنها صارت نفسًا مستقرة ثابتة على الحق، لا يخالجها شك؛ فقد استنارت بنور الإيمان، وتحلت بمكارم الأخلاق، وتخلت عن الأخلاق الذميمة. واطمئنان النفس يستمر ويزداد نورًا وأمنًا بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد]، ويصحب اطمئنان القلوب اطمئنان النفوس والعقول.

وذكر الإمام أبو حامد الغزالى، أن **للنفس الأمارة بالسوء أربعة ميول مختلفة**، تؤدى بالإنسان إلى اختلاف تصرفاته، واختلاف ردود أفعاله. وهذه الميول هى:

١ - نفس ذات **ميول عدوانية**، يميل صاحبها إلى العدوان على غيره.

٢ - نفس ذات **ميول بهيمية**، يميل صاحبها إلى إشباع غرائز بدنه الحسية البهيمية.

٣ - نفس ذات **ميول تَسَلُّطية**، يميل صاحبها إلى الكبرياء والغطرسة، وإلى حب الرياسة والتسلط على غيره.

٤ - نفس ذات **ميول شيطانية**، يميل صاحبها إلى كراهية غيره من الناس وبغضهم، دون سبب معقول يدعو إلى ذلك.. بل ويتمنى الإضرار بالغير.

وأصحاب تلك النفوس يثورون ويغضبون إذا لم يتحقق لهم مرادهم، ويهدأون ويستريحون إذا تحقق لهم ذلك.

ويرى **الإمام أبو حامد الغزالى** أن النفس البشرية **تتنقل بين الدرجات والأحوال**. فقد تسمو النفس الأمارة بالسوء، فتصير نفسًا مطمئنة حينًا، وقد تصير نفسًا لوامة حينًا، وقد تظل كما هى أمارة بالسوء، فالنفس البشرية لا تثبت على حال إلا إذا أراد الله تعالى لها الثبات.

القارئ الكريم

لعلك توافقنى (بعد تلك الرحلة) **أن فهم الذات الإنسانية لا يمكن أن يتم من خلال النظرات الجزئية للفرق المختلفة المهتمة بالإنسان**، فللماديين رؤية (تركز على الجسد) وللفلاسفة

رؤية (تركز على العقل) ولعلماء النفس رؤية، وللمهتمين بالدراسات الروحية رؤية. ولا شك أن **الطرح الحقيقى والشامل للذات الإنسانية هو طرح الله** ﷻ الذى لا تتوقف صلته بالذات عند إنشائها، بل يتابعها فى حياتها، ويكلفها، ويحاسبها، ويجازيها.

ويَعتبر **حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى** أن حقيقة الذات الإنسانية هى فقط المُكَوِّن الغيبى، وأن الجسد دابتها وليس عنصرًا أساسيًّا فيها. كما يرى أن النفس والروح والعقل والقلب شىء واحد فى الحقيقة، يختلف بالاعتبار. فإذا نظرنا إلى حياة البدن فهى **الروح**، وإذا نظرنا إلى الشهوة فهى **النفس**، وإذا نظرنا باعتبار آلة الفكر فهى العقل، وإذا نظرنا إلى موضع المعرفة فهى **القلب**.

ولعلك ـ قارئى الكريم ـ قد استنتجت من قراءتك لهذا الفصل، نقاط اختلافنا (على قلة شأننا) مع طرح شيخنا وأستاذنا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى، وغيره من العلماء ممن يتبنون نفس الرأى.

فالإنسان ـ كما طرحنا ـ كائن حى عاقل مدرك، خالد أبدى، لا يفنيه الزمن. وهو **كائن ثنائى**، أنشأه الله ﷻ من **مُكَوِّن غير مادى** (الروح ـ النفس ـ العقل ـ القلب) **ومُكَوِّن مادى** (الجسد) دائم التجدد فى الدنيا، ثم يتجدد فى بداية الحياة الآخرة.

بذلك **فالذات الإنسانية مكونة من خمسة عناصر أساسية، يختلف كل منها عن الآخر. فالنفس** فيها النوازع النفسية، سواء كانت خيرًا أم شرًّا، وقد تكون نفسًا مطمئنة، أو نفسًا لوامة، أو نفسًا أمارة بالسوء.. وهى التى تفعل الخير وتفعل الشر، وهى التى تُحَاسَب. **والقلب**، قريب من النفس فى تباين نزعاته وأحواله؛ وإن كان للنفس أشواق ليست للقلب، كذلك نُسبت للقلب فى القرآن الكريم صفات تُعجز عن الحصر ولا تتصف بها النفس.

أما **العقـل**، فهو الذى يوجه النفس، ويجعلها تختار بين البدائل، وتتعرف على الخير والشر، والحلال والحرام. فالعقل هو مناط التكليف فى الإنسان، ولولاه ما كان الإنسان مكلفًا بل صار مثل الدواب. أما **الروح** فهى الخير المطلق لا تخضع للمحاسبة والجزاء، وهى سر الخلود.

ويمكن تلخيص نظرتنا للعلاقة بين هذه العناصر الخمس للذات الإنسانية، فى أن **جوهر الذات الإنسانية هو النفس، وأن الروح والعقل والقلب هى قوى النفس اللامادية، وأن الجسد هو قواها المادية.**

ونختم طرحنا هنا برأى طريف لبعض الحكماء؛ فهم يرون أن **للإنسان خمسة أعمار**؛ الأول «**عُمر الميلاد**» كما يحدده تاريخ ميلاد الإنسان. والثانى «**عُمر الجسم**» تبعًا للحالة الصحية لمختلف أعضائه، فُرب شخص عمر ميلاده ستون عامًا أما حالته الصحية فتعادل حالة رجل فى الأربعينيات. والعمر الثالث هو «**عُمر العقل**» ويحدده ما اكتسبه الإنسان من خبرة ومعرفة وحكمة فى حياته. ثم «**عمر القلب**»، ويتوقف على إقبال الشخص على الحياة وما يعتمل فى قلبه من مشاعر، حتى قالوا الشباب شباب القلب.

وأخيرًا يأتى «**عُمر الروح**» الذى لا يتقدم بتقدم الأعمار السابقة، فالروح خالدة لا يؤثر فيها مرور السنين، بل تزداد تألقًا بمرور الوقت وتَقَدُّم العناصر الثلاثة السابقة فى العمر، إذ بتقدم عمر الميلاد تضعف هذه العناصر التى تمثل حُجُبًا على الروح.

وبهذا يصبح **لكل عنصر من عناصر الذات الإنسانية عمره الخاص به.**

***

الفصل العاشر

أنـــا .. والمـــوت

ـ مفهوم الموت فى الحضارات الإنسانية

ـ الطب والموت

- مستويات موت المخ
- حقيقة الحياة بعد موت المخ
- التوصيف الطبى لمراحل الموت

ـ الدين والموت

- الحياة غير الروح
- حياة الإنسان بالمنظور الدينى
- موت الإنسان بالمنظور الدينى
- الفرق بين الوفاة والموت

ـ أعلنونى مَيْتًا

-رأى الإسلام بخصوص موت المخ

ـ تأملاتى مع الموت

-حقيقة الموت

ـ أنا بعد الموت

- الحياة فى البرزخ
- أنا فى الحياة الأخرى

ـ طبيعتى فى الجنة

ـ القارئ الكريم

لا شك أن **الموتَ حق**[1]، وأنه مصير كل حى ولو كان رسولًا أو مَلَكًا مقرَّبًا، وهو يصرع الجبابرة بنفس السهولة التى يصرع بها الأقزام، ويقهر المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء بسواء. وإذا حضرت **ساعة الموت** فلا دافع لها، ولا رجعة إلى الحياة من بعدها، ولا يمكن لمخلوق ـ أيًّا كان ـ أن يُقَدِّم لحظة الموت أو يؤخرها عما قدره الله لها: ﴿... فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل].

وقد كان الرسول ﷺ يحض دائمًا على **ذكر الموت**؛ «أكثروا ذكر هازم اللذات»[2]، ذلك لأن المؤمن الذى يرقب الموت تكون أعماله نقية طاهرة؛ لأنه يعلم أنه مُقبل على الله تعالى لا مَحَالة، وأن الله يرصد أعماله ويحصيها عليه. ولكن ينبغى أن ندرك أن ذكر الموت والاستعداد له لا يتعارض مع الدعوة إلى **عمارة الكون** ودفع عجلة الحياة، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[3].

وينظر **العلم المادى** إلى الإنسان باعتباره جسدًا تدب فيه الحياة، التى هى ظاهرة بيولوجية صِرْفة. كما يفسر العلم إدراكنا لذواتنا الإنسانية، وجميع ما تقوم به هذه الذوات من مهام، بأنه راجع لنشاط أمخاخنا المادية فقط، ولا يشارك فيها عنصر غيبى (الذى هو الروح عند المتدينين).

أما **المنظور الدينى**، فيرى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق جسد آدم من **عنصر مادى** هو مادة الأرض، ثم سَوَّاه؛ أى أمده بالإمكانات الجسدية التى تؤهله **لنفخ الروح** فيه ليتحمل الأمانة، وأهم هذه المؤهلات هو المخ المتطور الذى يُظهر أهم أثر من آثار نفخ الروح فى الإنسان وهو **العقل المفكر** الذى يعَمرُ الأرض، ويتعرف على الله سبحانه وتعالى.

---

(١) **مراجع هذا الفصل**: كتاب «الوفاة الإكلينيكية وعلاقتها بخروج الروح» للأستاذ د.صلاح الدين سند، أستاذ أمراض النساء والتوليد، بكلية الطب، جامعة القاهرة.

كتاب «رحلة فى الملكوت» للأستاذ د.عماد الشربينى (رحمه الله) عميد كلية الحقوق ونائب رئيس جامعة طنطا سابقًا.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى وصححه الألبانى.

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد.

مفهوم الموت فى الحضارات الإنسانية

رغم أن الناس يعرفون الموت والحياة بالمعايشة والمشاهدة، إلا أن تعريف الموت ـ مثل تعريف الحياة ـ يكتنفه كثير من الصعوبات. مع ذلك فقد اتفقت **جميع الحضارات الإنسانية** بما فيها المصرية القديمة والبابلية والآشورية والصينية والهندية واليونانية، وكذلك **الديانات السماوية الثلاث**: اليهودية والمسيحية والإسلام، فى أن الموت يصحبه مفارقة الروح للجسد.

وقبل تطور الحضارات الإنسانية كان **الإنسان البدائى** مقتنعًا بأن لكل كائن حى حياة أخرى دفينة فى جوفه تنفصل عن الجسد عند الموت أو النوم، وقد عزز تلك الفكرة أنه رأى فى منامه بعضًا ممن ماتو. وكان الإنسان البدائى يخشى أن تعود روح الميت وتصب لعنتها عليه، فكان يدفن مع الميت سائر حاجاته وألوان الطعام، أو يُترك للميت الدار التى مات فيها، وينتقل هو إلى دار أخرى. وكان بعضُهم يُخرِج الجثة من خلال فتحة يُحدِثها فى الجدار، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة لكى تنسى الروح موضع مدخل الدار فلا تعاودها أبدًا.

وجاء فى بعض **كتب الهند القديمة**: «لا يُوقَظَنَّ نائمٌ إيقاظًا مفاجئًا؛ حتى لا تضل الروح طريقها إلى جسدها». وذلك يدل على أنهم اعتقدوا فى مغادرة الروح للجسد عند النوم كما تغادره عند الموت.

ويعتقد **الهنادكة**[1] **والبوذيون**[2] **والشنتو**[3] أن الروح تظل حبيسة فى الجمجمة عند الموت، وأنها لا تنطلق إلا بعد حرق الجثة وانفجار الجمجمة، ويساعد اللهبُ المتصاعد الروحَ التى تتحرر على الصعود لأعلى. ثم إن الهنادكة والبوذيين يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن الروح الشريرة تُعاد فى جسد حقير مثل الكلب والخنزير، وتظل فى تلك الدورات حتى تتطهر، بينما تتنقل الروح الصالحة فى الأجساد الخيرة. وتصل الروح إلى السعادة الأبدية المطلقة، بالتحاقها بالروح الكلى (الإله) كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط، وهى ما يطلِقون عليها حالة «النيرفانا».

(١) الهندوسية، ديانة يعتنقها قرابة مليار إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية.
(٢) البوذية، هى وسط بين الدين والفلسفة، وتنتشر فى الصين وبورما وتايلاند، ونيبال والتبت وسيلان.
(٣) الشنتوية، ديانة اليابان، وتقدس قوى الطبيعة والوطن والإمبراطور والأبطال القوميين.

وإذا كانت الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة قد اتفقت على مغادرة الروح للجسد عند الموت، فقد اختلفت اختلافات شتى فى **كيفية خروج الروح وخلوصها من الجسد**، وهل تعود إلى هذا الجسد أم تعود إلى جسد آخر؟

أما الملحدون بشكل عام فيعتقدون أن الموت يؤدى إلى فناء الجسد والنفس، ويؤمن بعض فلاسفتهم بـ«فلسفة التلاشى» التى تعتبر النفس مؤلفة من ذرات شأنها شأن الجسد، وعند الموت وبعد تحرر النفس من الجسد فإن كليهما يفسد، وتنحل وتتبعثر ذراتهما ضمن الدورة الشاملة الكبرى للطبيعة؛ أى أن النفس تتبدد عند الموت.

الطب والموت

نحتاج قبل طرح نظرة الإسلام إلى الموت أن نتعرف عليه من وجهة النظر الطبية، ونمهد لذلك **بوقفة مع علم الفسيولوجيا**، المختص بدراسة وظائف أعضاء جسم الإنسان:

يحتوى جسم الإنسان على عدد من الأجهزة تُعرف **بالأجهزة الحيوية**، التى إذا توقف أحدُها عن العمل مات الإنسان خلال دقائق قليلة. وأهم هذه الأجهزة ثلاثة، وهى:

١ - **الجهاز التنفسى**، الذى يستخلص من الهواء المحيط بنا الأكسجين اللازم لحرق الغذاء، لإمداد أنسجة الجسم وخلاياه بالطاقة الضرورية للحياة.

٢ - **القلب**، الذى يضخُ الدمَ لتوصيل الأكسجين والغذاء اللازمين لحياة جميع أعضاء الجسم.

٣ - **المخ**، الذى يعطى الأوامر لحدوث التنفس وتنظيم خفقان القلب، بالإضافة لوظائفه العضوية والعقلية والنفسية الأخرى.

لذلك:

أ) إذا توقف التنفس، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ والقلب).

ب) إذا توقف القلب، تموت جميع أعضاء الجسم (بما فيها المخ وعضلات التنفس).

جـ) إذا توقف المخ، يتوقف التنفس، ويضطرب عمل القلب، ثم يتوقف.

من ذلك نرى أن حياة جسد الإنسان تعتمد على هذه الأجهزة الثلاثة الحيوية (الحياتية) الأساسية التى **تعمل بطريقة تكاملية**. لذلك يؤدى توقف الحياة فى أى منها إلى توقف الحياة

فى الجهازين الآخرين، وبالتالى موت الجسم ككل. ويمكن تشبيه علاقة هذه الأجهزة الثلاثة بحياة الإنسان بكرسى ذى ثلاثة أرجل، إذا كُسرت إحداها سقط الكرسى.

وفى أثناء **عمليات القلب المفتوح**، يُوقَف القلب لمدة ساعتين أو أكثر، ولا يعنى ذلك أن الشخص قد مات؛ فوظيفة القلب تقوم بها مضخة تضخ الدم فى جهاز يقوم بوظيفة الرئة. ثم يُعاد الدم إلى الجسم، وبالرغم من توقف القلب والتنفس فإن هذا الشخص حى بكل تأكيد.

مستويات موت المخ

يُفَرِّق الطب بين موت الأجزاء المختلفة للمخ[1] كالآتى:

١ - موت القشرة المخية، مع بقاء جذع المخ سليمًا[2]: Cerebral Death

يؤدى ذلك إلى غيبوبة تامة، ولكن يظل الإنسان يتنفس وقلبه ينبض، ويستطيع أن يفتح ويُغمض عينيه ويحرك عضلات وجهه كرد فعل انعكاسى للمؤثرات المختلفة، كما يستطيع أن يبتلع الطعام. وهذه الحالة **لا يعتبرها الأطباء موتًا للإنسان**؛ لأنه يتنفس بدون أجهزة صناعية، وقلبه ينبض بدون الاعتماد على العقاقير. وقد **أفاقت بعضُ الحالات** من هذه الغيبوبة بعد فترات قصُرَت أو طالت. ويعيش الإنسان إذا أفاق **بعجز مستديم** حسب المراكز المخية التى ماتت؛ مثل الشلل الكلى أو الجزئى، أو عيوب فى النطق أو قصور الذاكرة أو غيرها.

٢ - موت جذع المخ: Brian Stem Death

يؤدى ذلك مباشرة إلى **الموت**، بسبب توقف التنفس والدورة الدموية. وإذا تدخلنا سريعًا واستطعنا المحافظة على خفقان القلب بواسطة عقاقير تحقن وريديًّا طوال الوقت بالإضافة إلى أجهزة التنفس الصناعى التى تضخ الأكسجين إلى الرئتين، يظل هذا الإنسان فى **غيبوبة**، وذلك لانقطاع الإشارات العصبية التى يرسلها جذع المخ إلى قشرة المخ ليشارك بها فى منظومة اليقظة، **ويظل هذا الإنسان معتمدًا على الأجهزة والعقاقير** التى إذا توقفت توقف التنفس والقلب.

Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by (1) Lippincott Williams and Wilkins, phildelphia USA.

(٢) «**القشرة المخية**» فى مخ الإنسان هى المسئولة عن نشاطاته الحركية والحسية والعقلية ووعيه. بينما يحتوى «**جذع المخ**» على المراكز الحيوية المسئولة عن تنظيم العمليات الحياتية الأساسية للإنسان، كالتنفس ووظائف القلب ودرجة حرارة الجسم وغيرها.

٣ - موت المخ الكلى: Whole Brain Death

يؤدى هذا بالطبع إلى **الموت** مباشرة، إلا إذا تدخلنا أيضًا سريعًا بأجهزة التنفس الصناعى والعقاقير التى تحافظ على خفقان القلب، وفى هذه الحالة يظل الإنسان فى غيبوبة تامة وشلل، ويظل معتمدًا كليًّا على الأجهزة والعقاقير التى إذا توقفت توقف التنفس والقلب. وتُسمى هذه الحالة «**موت الدماغ أو المخ**» أو «**الموت الإكلينيكى**» وهناك شبه إجماع بين الأطباء على اعتباره موتًا للكائن الإنسانى.

حقيقة الحياة بعد موت المخ:

تعتمد حياة القلب وبعض أعضاء الجسم بعد موت المخ الكلى (وأيضًا موت جذع المخ) على أجهزة طبية خاصة وعقاقير معينة، ولا تُعتَبر حياة إنسانية، فهى **حياة صناعية بدون روح**[1]. بل إن هذه الحياة لا يمكن مقارنتها **بحياة الجنين داخل الرحم** قبل نفخ الروح فيه، وذلك لأن مخ الجنين يكون حيًّا، كما أن حياة أعضائه تعتمد على مدد وتعليمات تأتيه من جسم الأم الحى، وليس من أدوية وأجهزة صناعية. وأخيرًا فإن حياة الجنين عادة ما تتطور للحياة الإنسانية الكاملة، بينما توقُّف المخ التام عن العمل توقف نهائى لا رجعى، ويعقبه دائمًا فشل باقى الأجهزة الحيوية، ولا يمكن للحياة ولا للروح أن تعود إليه مرة أخرى.

ويطلق الطب الحديث على بعض حالات موت المخ الكلى تعبير «**الحياة النباتية Vegetative Life**»، ولكن الحقيقة أن الحياة الصناعية بعد موت المخ لا ترقى إلى حياة النبات الذاتية، التى تعتمد حياة أعضائه المختلفة بعضها على بعض؛ بينما هذه الحياة لا تقوم بذاتها، ولا يُكَمِّل بعضها بعضًا. وإنما هى خلايا وأعضاء منفردة تنظم عملها عقاقير وأجهزة طبية.

التوصيف الطبى لمراحل الموت

ذكرنا أن الطب يعتبر الموت **فشل الجسم كجهاز تكاملى**، وعلامته **التوقف النهائى للأجهزة الحيوية فى الجسم**، وأهمها الدورة الدموية والتنفس والجهاز العصبى. ويسجل الطب مرحلتين للموت:

---

(١) سنشرح هذا المعنى بعد قليل.

المرحلة الأولى: «الموت الجسدى أو الموت الإكلينيكى» Somatic Death

وهو نفس المفهوم السابق، أى **توقف أجهزة الجسم الحيوية عن العمل**، فلا يعود الإنسان إلى الحياة مرة أخرى. **وعلامات هذه المرحلة**: توقف **التنفس**، توقف نبضات **القلب**، انفتاح **العينين** واتساع وتوقف حركة **حدقة العين**، ارتخاء **عضلات الوجه** مما يسبب سقوط الفك السفلى، وبعد فترة يحدث تسطُّح **أجزاء الجسم الملاصقة** للسرير أو للأرض، ثم يلى ذلك **برودة الجسم** حتى تصبح درجة حرارته معادلة لدرجة حرارة الوسط المحيط، وتغير لون الجسم إلى **لون أزرق** نتيجة لركود الدم فى الشعيرات الدموية.

المرحلة الثانية: «الموت الخلوى أو الموت الجزيئى» Molecular Death

يعقب الموت الجسدى تحلل الخلايا والأنسجة وأعضاء الجسم كل على حدة. **وتستمر أعضاء الجسم وخلاياها فى الحياة (بدون تواصل بين بعضها البعض) لفترات تختلف من عضو لآخر**، حتى يتم استهلاك المتبقى داخلها من الغذاء والأكسجين. فخلايا المخ تستمر فى الحياة حتى سبع دقائق، وخلايا القلب حتى عشرين دقيقة، وخلايا الكليتين حتى ثلاثين دقيقة، وخلايا الأطراف (اليدين والقدمين) تستمر فى الحياة حتى ست ساعات، بينما تستمر خلايا القرنية والعظام والأوتار والجلد فى الحياة حتى اثنتى عشرة ساعة.

وخلال هذه الفترة، إذا نقلنا أى نسيج أو عضو من هذه الأعضاء قبل موته الخلوى أو الجزيئى إلى جسد إنسان آخر فإنه يستطيع أن يحيا فى الجسد الجديد لسنين عديدة. أى أن **لكل نسيج أو عضو فترة صلاحية يمكن استخدامه فيها**[1]، وإلا تعفَّنت خلاياه وتحللت إلى عناصرها الأولية. وهذا يثبت أنه برغم توقف الحياة فى الجسد ككائن حى متكامل ـ وهو ما يطلق عليه الطب «الموت الجسدى» ـ فإن ذلك لم يأخذ معه الحياة من الخلايا والأنسجة والأعضاء المنفردة، والتى تستطيع أن تكمل حياتها لساعات فى جسد الميت، ثم لسنين طويلة تحت إمرة وفى خدمة جسد وروح جديدين.

(١) مثال ذلك، زراعة «قرنية العين»، فبعد تشخيص الموت بساعات عديدة (تصل إلى اثنتى عشرة ساعة) نستطيع أن نأخذ قرنية من جثة الميت، ونقوم بنقلها إلى جسد إنسان آخر يحتاجها، كما يمكن حفظ هذه القرنية كنسيج مستقل لمدة تصل إلى أسبوع أو أكثر فى درجة حرارة منخفضة (أربع درجات مئوية)، بل ونستطيع الاحتفاظ بحيويتها فى مزارع نسيجية لمدد طويلة تصل إلى ثلاثين يومًا. وليست القرنية فحسب، بل أصبحت عمليات نقل القلب والكلى والكبد من العمليات الجراحية الشائعة.

الديـن والمـــوت

يبين لنا القرآن الكريم أن «**الموت هو المقابل أو النقيض للحياة**»، ويظهر هذا جليًّا فى مقابلة الموت بالحياة فى أكثر من ستين موضعًا فى القرآن الكريم[1]. ومن أمثلة ذلك:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ... ﴿٢﴾ ﴾ [الملك].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [القيامة].

الحياة غير الروح

نمهد لعرض المنظور الدينى للموت بأن نؤكد أن **الحياة غير الروح**، وحول هذا المعنى قال **فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى** «إن الذين يقولون إن الحياة هى الروح مخطئون، فالنبات به حياة، يمكن أن نسميها «**نامية نباتية**»، فالنبات فيه نمو وفيه حركة وفيه أشياء نعرف منها أن النبات حى، وإذا توقفت الحياة فإن النبات يذبل ويموت. والحيوان به حياة (**نامية حيوانية**)، لكن وظائف هذه الناميات الحيوانية غريزية لا تستخدم العقل فى توجيهها، فمثلًا إذا ضربت القطة فلا إجابة لك عندها إلا الخربشة، أما **الإنسان** فيختار من بين بدائل متعددة باستخدام العقل والفكر».

ويضيف الشيخ الجليل: «إن سر الإنسانية هو **زيارة المَلَك للجنين ونفخ الروح فيه**، وهى حمل الأمانة والتكاليف الشرعية، وذلك بالاختيار بعقله بين البدائل المختلفة».

ومما يؤكد الطبيعة المختلفة للروح عن حياة الجسد هو **مغادرة الروح للجسد أثناء النوم**، وبالرغم من ذلك فالنائم ليس مَيْتًا، بل إن كل أعضاء جسده فى حياة تامة، فهو يتنفس وقلبه ينبض. وقد بين القرآن الكريم والحديث الشريف باللفظ الصريح **أن النوم هو شبيه الموت، وأن اليقظة من النوم هى شبيهة البعث**، وذلك لكى نتعظ ونوقن بالبعث، ولكى نطبق كثيرًا مما يحدث أثناء النوم على الموت. وقد فهم جُل علماء المسلمين من قديم هذا المعنى، واتفقوا على تعريف حالة النوم بأنها حالة «**الموت الأصغر**»، وأن النوم هو «**شقيق الموت**».

(١) سواء بالمصدر الصريح، أو المصدر الميمى، أو اسم الفاعل، أو الزمن الماضى أو الحاضر أو المستقبل.

ودليل مفارقة الروحُ الجسدَ أثناء النوم نجده فى الآتى:

١ ـ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر]. وقد اتفق جمهور العلماء على أن الأنفس المذكورة فى الآية تعنى أرواح الناس، وأن التوفى ـ كما سنرى بعد قليل ـ معناه قبض الروح.

٢ ـ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام].

٣ ـ **دعاء النوم عن الرسول** ﷺ «باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[(١)]. وكذلك دعاؤه ﷺ إذا أوى إلى فراشه: «باسمك اللهم أموت وأحيا»، وإذ استيقظ قال: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[(٢)].

٤ ـ قصة نوم الرسول ﷺ وأصحابه وهم راجعون من غزوة خيبر حتى طلعت الشمس ففاتتهم صلاة الصبح، فعندما قام قال لأصحابه: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء»[(٣)].

حياة الإنسان بالمنظور الدينى

مما سبق، نخرج بأن **حياة الإنسان ـ بالمنظور الدينى ـ تتكون من مرحلتين:**

المرحلة الأولى: مرحلة **خلق جسد الجنين** وتسويته ووجود الحياة فى خلاياه، والحياة موجودة فى سائر الكائنات الحية وليست فى الإنسان وحده.

المرحلة الثانية: مرحلة **نفخ الروح** فى الجنين بعد تسويته، وتستمر حتى وفاته. وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات.

معنى ذلك أن **الحياة والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنسانى**، وكل منهما يؤثر

(١) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.
(٢) الحديث: أخرجه البخارى، ومسلم.
(٣) الحديث: أخرجه البخارى ومسلم.

فى الآخر ويتأثر به. فاكتمال تسوية جسد الجنين وحياته شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فى جسده فإن غادرته الروح نهائيًّا توقفت حياة الإنسان.

موت الإنسان بالمنظور الدينى

وبما أن الموت هو نقيض الحياة، فإنه يتكون أيضًا من مرحلتين، هما:

١ ـ مغادرة الروح الجسد.

٢ ـ توقف الحياة (الموجودة أصلًا فى الجسد قبل نفخ الروح).

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو: عند الموت، **هل مغادرة الروح للجسد وتوقف الحياة يحدثان معًا، أم أن أحدهما يسبق الآخر؟**

من الأدلة التالية، سنرى أن **مغادرة الروح للجسد تسبق توقف الحياة فى الإنسان ككل، وفى أعضائه وأنسجته وخلاياه.**

الدليل الأول: هو **دليل منطقى**، يعتمد على مبدأ أن «**نقض البناء يكون عكس مراحل إقامته**»، وعند تطبيق هذا المبدأ على مرحلتى خلق الإنسان، نجد أن الجنين منذ كان نطفة هو كائن حى، ثم تُنفخ فيه الروح عند مائة وعشرين يومًا[١]، وإذا كان الموت هو نقيض الحياة، فالأرجح أن تغادر الروح الجسد عند الموت أولًا ثم تتوقف الحياة بعد ذلك.

الدليل الثانى: هو **دليل تجريبى**، يعتمد على إمكانية **نقل بعض أعضاء الإنسان الحيوية** بعد بضع ساعات من موته إلى جسد جديد، حيث تظل حية لسنين طويلة. وهذا يثبت أنه بالرغم من أن الروح قد غادرت الجسد، فإن الأعضاء الحيوية والأنسجة تظل حية لساعات فى جسد الميت مما يسمح بنقلها، أى أن قبض الروح يسبق توقف الحياة.

الدليل الثالث: دليل الرواية، وهو ما يُعرف بـ «**أحاديث شخوص البصر عند الموت**» وفيها يُخبر الرسول الكريم ﷺ أن البصر عند الموت يتبع ـ أو يَشْخَص إلى ـ الروح أو النفس، أى أن الروح تفارق الجسد وهو ما زال حيًّا، وهى ثلاثة أحاديث:

١ ـ دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شق بصره (شَخَصَ) فأغمضه. ثم قال: «إن الروح إذا قُبِضَ تبعه البصر»[٢].

(١) بالمعنى، من حديث أخرجه البخارى ومسلم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألبانى.

٢ ـ قال الرسول ﷺ: «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر، فإن البصر يتبع الروح...»[١].

٣ ـ قال رسول الله ﷺ «ألم تروا الإنسان إذا مات شخص بصره؟». قالوا: بلى. قال: «فذلك حين يتبع بصرهُ نفسَه»[٢]. وفى شرح النووى: قول الرسول ﷺ «شَخَصَ بصُره»: أى: ارتفع ولم يرتد، وقوله ﷺ«يتبع بصره نفسه»: المراد بالنفس هنا الروح، ويؤكد الحديث أن الموت ليس بإفناء، وإنما هو انتقال وتغير حال وإعدام الجسد دون الروح.

الدليل الرابع: وهو دليل من **القرآن الكريم**، فآيات سورة الواقعة تتحدث عن مغادرة الروح الجسد: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة].

وتبين الآيات حقيقتين:

الأولى: إن **الحلقوم هو آخر جزء من الجسد تغادره الروح**، وهذا نفهمه من أسلوب التحدى لأى شخص أن يستطيع إرجاع الروح إلى مستقرها داخل الجسد.

الثانية: إذا وصلت الروح إلى مستوى الحلقوم فهى قد **تركت مستقرها داخل الجسد**، وهذا نفهمه من كلمة «ترجعونها»، فالإرجاع يدل على أنها تركت مكانها الأصلى داخل الجسد. وهذا مثل قوله سبحانه: ﴿...إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة]، ولم يقل مثلًا «ذاهبون»، مما يدل على أن الأرواح ترجع لمكانها الأصلى عند الله ﷻ.

ويقوم **الحديث الشريف** بتفسير هذه الحقيقة؛ فيبين الرسول الكريم ﷺ أن الروح إذا وصلت الحلقوم فلا تُقبل التوبة ولا تُقبل الوصية[٣]، وقدرة الإنسان على التوبة والوصية تعنى أنه ما زال حَيًّا.

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة، وحسنه الألبانى.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) (أ) جاء فى الحديث الشريف: «إن الله ﷻ يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر» الحديث: أخرجه الترمذى، وابن ماجة وأحمد فى المسند، وحسنه الألبانى. وقوله ﷺ «ما لم يغرغر»: بمعنى لم تبلغ روحه حلقومه، فإذا وصلت الروح للحلقوم فلا توبة.

(ب) وجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تُمهل حتى إذا بَلَغَت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان» أخرجه البخارى. وقد جاء فى شرح هذا الحديث الشريف: أوصيت بدفع الحقوق حيث لا تنفع وصيتك، فقد صار التصرف فى مالِك للورثة.

ونخلص من هذه الأدلة الأربعة، إلى **أن الروح تغادر الجسم قبل توقف الحياة فى جسم الإنسان (ككائن حى)، وفى خلايا وأنسجة وأعضاء الجسم منفردة. كذلك فإن الروح تترك مستقرها فى الجسد قبل توقف الحياة فى المخ وأعضاء التنفس والقلب**، وهذه الأجهزة هى الأجهزة الحيوية التى إذا توقف واحد منها عن العمل مات الإنسان.

الفرق بين الوفاة والموت

من أجل أن نتبين الفرق بين الوفاة والموت بالمنظور الدينى، يجب أن نتأمل آيات القرآن الكريم التى جاءت فيها الكلمتان باشتقاقاتهما المختلفة[1]، وبتأمل هذه الآيات نتوصل إلى ست حقائق توضح الفرق فى المعنى بين الكلمتين.

الحقيقة الأولى: يُنسب الموت إلى الإنسان[2] وباقى الكائنات الحية[3] وأيضًا الجمادات[4].

الحقيقة الثانية: «الوفاة» لا تُنسب إلا إلى الإنسان[5].

الحقيقة الثالثة: الوفاة أو التوفى ليس هلاك الجسد أو إهلاكه، فالوفاة تحدث أيضًا أثناء النوم[6]:

الحقيقة الرابعة:الوفاة والموت شيئان مختلفان، ولما كانت الوفاة هى قبض الروح، فلا بد أن يكون الموت شيئًا آخر[7]:

---

(١) المصدر والفعل واسم الفاعل.

(٢) ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام].

(٣) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ... ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة].

(٤) ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

(٥) ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل].

(٦) ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام].

(٧) ١ ـ ذُكِرَ الموتُ فى ستين موضعًا فى مقابلة الحياة، أما التوفى (قبض الروح) فيقابله (نفخ الروح).

٢ ـ عند مخاطبتنا لله سبحانه وتعالى طالبين الموت نقول «توفنى» أو «توفنا»، ولم يرد فى القرآن لفظ «أمتنى» أو «أمتنا»، وذلك تأدبًا مع الله، فالإماتة تحمل معنى الهلاك، أما التوفى فهو تحرر من سجن الجسد واللحاق بنعيم الله ﷻ. ﴿ ...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف].

٣ - يخاطب الله ﷻ رسوله الكريم ﷺ بلفظ التوفى فقط ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس].

٤ - الاستثناء الوحيد فى مخاطبة رسول الله ﷺ بلفظ الموت، فى قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزمر]. وهذا مقصود، لينقل لنا معنى أن كل شىء هالك إلا وجهه ﷻ.

الحقيقة الخامسة: يتكون الموت من مرحلتين، هما قبض الروح ثم الموت الجسدى[1]:

الحقيقة السادسة: الموت (وليس الوفاة) هو المرحلة الأخيرة للإنسان فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فكل آيات القرآن الكريم التى تُذكر فيها أحداث ما بعد الحياة الدنيا تجىء بعد لفظ الموت، وليس لفظ الوفاة[2].

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرًا من العلماء اتفقوا على إطلاق تعبير «الموت الأصغر» على النوم، والأكثر صوابًا هو تسمية النوم بـ«**الوفاة الصغرى**» أو «**وفاة النوم**»، بينما تكون مغادرة الروح النهائية والمستديمة للجسد عند الموت هى «**وفات الموت**».

يتضح من هذه الحقائق أن **التكريم الأساسى للإنسان وما حُمِّل من تكاليف شرعية يرجع إلى وجود الروح** فيه، لذلك نرى أن الوزر الشرعى الأساسى والرئيسى على جريمة القتل يرجع إلى إزهاق هذه الروح (الوفاة) وليس إنهاء حياة الجسد (الموت)، الأمر المشترك بين جميع الكائنات الحية.

أعلنونى مَيْتًا[3]

إذا كان القرآن الكريم يبين أن الروح تفارق الجسد قبيل الموت، وإذا كان الطب لم يتوصل بعد إلى مفهوم الروح كعنصر غيبى فى الذات الإنسانية، فمعنى ذلك أن **كلًّا من الدين والطب يعتبران موت الجسد هو نهاية الوجود الإنسانى فى هذه الدنيا**. ولما كان الموت يعنى توقف آليات الحياة[4]، **فإن هذا أمر مادى** يستطيع العقل والعلم الحديث البحث فيه وإدراكه.

---

(١) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر].

(٢) ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس].

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون].

(٣) من ناحية اللغة، مَيِّت بتشديد وكسر الياء تعنى الإنسان القابل للموت، سواء كان حيًّا أو فارق الحياة، وكلنا ذلك الشخص. أما **المَيْت** بسكون الياء فهو من مات بالفعل.

(٤) أى توقف قدرة الخلايا على الحفاظ على وجودها، نتيجة لتوقف إمداد الغذاء والوقود والتعليمات اللازمة لعملها، مما يؤدى إلى توقف العمليات الكيميائية داخل الخلايا.

وقد **توصل الطب الحديث إلى حقائق هامة بخصوص العلاقة بين موت الإنسان وموت المخ. فقد صار** التشخيص المؤكد للموت الكلى للمخ ممكنًا، كما أصبح من الممكن أيضًا الجزم بأن توقف المخ الكلى عن العمل (أو موته) هو توقف نهائى لا رجعى، وليس غيبوبة مؤقتة قد يفيق منها الإنسان. وإذا كان جذع المخ هو المتحكم فى وظائف القلب والتنفس، فإن موت جذع المخ يؤدى مباشرة إلى توقفهما، أى إلى الموت.

لذلك أصبح الطب الآن يعتبر **أن موت المخ هو موت للجسد أو هو موت الكائن الإنسانى**[١]. وبالتالى إذا أثبت الطب موت المخ الكلى أو موت جذع المخ بلا رجعة، فقد **سبقه مغادرة الروح لجسم الإنسان، وبذلك تكتمل ظاهرة الموت من وجهتى النظر، العلمية والدينية.**

ويتم **تشخيص موت المخ (أى موت الإنسان) إكلينيكيًّا (سريريًّا)** من خلال ثلاث علامات إكلينيكية [سريرية] يجب أن تجتمع معًا، وهى[٢] [٣]:

١ - **فقد الوعى، وفقد القدرة العضلية على الاستجابة للنداء على الشخص، وعدم التجاوب مع المؤثرات المؤلمة** (مثل وخز الإبر) فى الوجه[٤].

٢ - **فقد القدرة على ردود الأفعال المنعكسة اللاإرادية**، والتى يتحكم فيها جذع المخ (Brain Stem Reflexes)، وأهمها عدم ضيق حدقة العين عند تسليط الضوء عليها.

٣ - **عدم وجود تنفس تلقائى بعد إيقاف جهاز التنفُّس الصناعى** لمدة ثمان إلى عشر دقائق. وأحيانًا، تؤثر بعض العوامل على وظيفة المخ، وتؤدى إلى **الإغماء المؤقت**، مثل: انخفاض شديد فى درجة حرارة الجسم أو هبوط شديد فى ضغط الدم أو تعاطى أدوية معينة أو حالات السُكْر الشديد أو انخفاض مستوى سُكَّر الدم. وفى مثل هذه الحالات

---

(١) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA.

(٢) Critical Care Medicine: American Society of Critical Anesthesiologists 2nd edition, 2004, by Lippincott Williams and Wilkins, Philadelphia USA.

(٣) Brain Death Worldwide: Accepted fact But No Global Consensus on Diagnostic Criteria: Wijdicks E., Neurology, 58:20- 25, 2002.

(٤) الوجه من المناطق التى يتحكم فى عملها الأعصاب الجُمجمية التى توجد مراكزها فى جذع المخ.

يلزم التأكد من موت المخ بواسطة «**اختبارات إضافية متخصصة**»[١].

ولا شك أن القرآن الكريم لم يتنزل ليعلمنا كيف نحكم على موت الإنسان، وترك ذلك لأهل الذِكر وهم الأطباء، وهذا ما قرره مجمع البحوث الإسلامية. ومع ذلك فإن المجمع قد **حدد ٤ علامات ـ استنبطها من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة ـ يُشَخِّص وجودها مجتمعة موت الإنسان**، وهذه العلامات تتفق مع رأى الطب، وهى:

١ - توقف التنفس.　　٢ - إحداد البصر: معناه شخوصه وثبات العينين[٢].

٣ - انفراج الشفتين[٣].　　٤ - سقوط القدمين فلا ينتصبان[٤].

رأى الإسلام بخصوص موت المخ

انعقدت دورتان **للمنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالكويت**، الأولى عن «الحياة الإنسانية بدايتها ونهايتها» عام ١٩٨٥م، والثانية عن «التعريف الطبى للموت» عام ١٩٩٦م، وقد اعتبرت كلتاهما **الإنسان مَيْتًا إذا توقفت جميع وظائف دماغه نهائيًّا عن العمل بما فى ذلك جذع المخ**.

وهذا أيضًا ما قرَّره **مجمع الفقه الإسلامى التابع لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامى** المنعقد فى العاصمة الأردنية عمان عام ١٩٨٦م، **ومجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة** عام ٢٠٠٩م، فقد أفاد المجمعان أنه بعد التداول فى سائر النواحى التى أُثيرت حول أجهزة الإنعاش والاستماع إلى شرح مستفيض من الأطباء المختصين، أنه **يسوغ رفع أجهزة الإنعاش المُرَكَّبة على الشخص إذا حكم الأطباء الاختصاصيون الخبراء بتعطل جميع وظائف دماغه تعطلًا نهائيًّا لا رجعة فيه، حتى وإن كان بعض الوظائف ـ كالتنفس والقلب ـ لا تزال تعمل آليًّا بفعل الأجهزة المركبة والعقاقير، ويُعتبر الشخص مَيْتًا شرعًا بعد توقف التنفس والقلب توقفًا تامًّا بعد رفع هذه الأجهزة**[٥].

---

(١) مثل عدم وجود أى ذبذبات فى رسم المخ الكهربائى، واختبارات الجهد الكهربائى المُثَار (Evoked Potentials)، وتقنيات التصوير الإشعاعى المتقدمة، خاصة تلك التى تبين عدم تدفق الدم إلى المخ، ويضيف البعض عدم استجابة جذع المخ لحقن عقار الأتروبين.

(٢) يحدث ذلك بسبب موت مراكز الأعصاب الجُمجمية (Cranial nerves) المسئولة عن حركة العين.

(٣) يحدث ذلك بسبب موت مركز العصب السابع من الأعصاب الجمجمية المسئول عن حركة الشفتين.

(٤) ويحدث ذلك بسبب فقد ردود الفعل المنعكسة اللاإرادية، وعدم الإحساس بمكان القدمين والمسئول عنه المخ.

(٥) أخذت معظم دول العالم الإسلامى ـ وغير الإسلامى ـ برأى الطب فى **اعتبار موت الدماغ موتًا للإنسان**، ووُضعت القوانين المنظمة لرفع أجهزة الإنعاش المركبة على هؤلاء الأشخاص، كما وضعت القوانين واللوائح المنظمة **لنقل الأعضاء** منهم. وفى منطقة الشرق الأوسط لم يتبقَ سوى قليل من الدول التى لم تضع بعد هذه القوانين كمصر والسودان وليبيا والعراق.

ويضيف د. **صلاح الدين سند**، مستكملًا جهده الكبير فى إخراج دراسته العميقة (**الوفاة الإكلينيكية**) قائلًا: إنه إذا كانت هذه المؤتمرات الفقهية قد اعتمدت فى قراراتها على رأى الطب فى اعتبار الشخص مَيْتًا عند موت الدماغ، فإن إثباتنا سَبْق مغادرة الروح لجسد الشخص الميت دماغيًّا يدعم قرارات هذه المؤتمرات الفقهية، ويساعد أهل وأقارب هذا الشخص على أخذ القرار برفع أجهزة الإنعاش عنه.

تأملاتى.. مع الموت

لا شك أن ظاهرة الموت **أدهشت الإنسان وأربكته منذ وَعَى بذاته**، فالإنسان البدائى كان يجد رفيقه الذى يفور جسدهُ بالحركة والحس والنضرة، قد تبدل فى لحظة، وصار جسدًا باردًا لاحياة فيه، رغم تكامل كل أعضائه وأجزائه. ربما ربط هذا الإنسان بين خفوت الحياة ثم انطفائها فى جسد رفيقه وبين خفوت النار المشتعلة، وربما ربط بين ذلك وبين تصاعد الدخان من النار إلى السماء قبيل انطفائها، ومن هذا الربط ربما اعتقد الإنسان البدائى أن داخله عنصرًا خفيًّا يمكن أن يفارق جسده ويتصاعد إلى السماء (كالدخان)، وأن هذه المفارقة هى التى تؤدى إلى الموت. ومن هذه الملاحظات بنى الإنسان أسطورته، التى ربما تمثل **أول تصور عقلى للبشرية عن الروح**.

وحدث الموت يجتاح **جميع الكائنات الحية**، من إنسان وحيوان ونبات، فهو وجه العملة المقابل للحياة. وفى نفس الوقت فإنه يصادف هذه الكائنات **فى أى مرحلة من مراحل حياتها**. فقد يصادفها فى لحظة ميلادها، وقد يعتريها فى مرحلة شبابها، وقد يأتى عليها فى مرحلة الشيخوخة. وإذا كان الموت يرجع فى معظم الأحيان لمرضٍ أصاب الجسم أو حادثٍ أَلَمَّ به، فقد يكون تلقائيًّا دون مقدمات، وهو فى النهاية حدث واقع لا محالة، ولا مجال لتجنبه وتحاشيه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الأنبياء].

والموت يمثل على المستوى النفسى، حدثًا مخيفًا مرعبًا.. ومؤلمًا.. وبغيضًا..

فلا جدال أن **الموت مخيف ومرعب**. فبعد أن كنا بين الأهل والرفاق نتنفس معهم نسيمَ الحياة ونستمتع معهم بلذاتها، نتصور أنفسنا ونحن نُوارَى فى باطن الأرض، حيث يهيل علينا الأحبابُ التراب، ليوَدِعونا إلى الأبد، فنبقى فى فزع وحدة القبر ورعب السكون القاتل بين الأجداث فى حَلْكة الليل.. نعم إنها لحظة تقشعر من هول تخيلها الأبدان.

ولا شك أن الموت **حدث مؤلم**. وإذا كانت بعض هذه الآلام ترجع إلى طبيعة المرض المميت

الذى يصيب الإنسان، فإن علماء الدين والأطباء يخبروننا أن للموت سكرات مختلفة عن آلام المرض، مِصداقًا للآية الكريمة ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ [ق]، بل إن هذه السَكَرَات كان يعانيها أقرب الخلق إلى الله ﷻ، فقد كان المصطفى ﷺ فى لحظات احتضاره يمسح وجهه بالماء ويدعو: «اللهم أَعِنِّى على سكرات الموت»[1].

وأخيرًا.. لماذا الموت **حدثٌ بغيض**؟... لا شك أن الموت بما يحمله من معانى الفناء والعدم، يُعتبر أكثر الأمور كراهية للنفس البشرية، حتى وإن آمن الكثير منهم أنهم منتقلون إلى عالم أفضل. كذلك فإن الاستمتاع بالدنيا والتعلق بها كَبَّرَ عند النفس بغض مفارقتها. وقد أدرك اللعينُ إبليس بُغضَ النفس البشرية للفناء والعدم، فدخل إلى آدم من هذا الباب ليغريه بمعصية ربه والأكل من الشجرة المحرمة ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه].

وإذا كان **الفناء والعدم أبغض الأمور للإنسان، فلا شك أن نعمة الإيجاد أعظم نعم الله ﷻ علينا**. والمدهش أن بعض الملاحدة يُمارى ويَدَّعى أنه غير راض على وجوده فى الدنيا، ويضيف ساخرًا: إن خالقكم لم يأخذ رأيى قبل أن يخرجنى إلى الوجود. وقد أفحمت أحد هؤلاء المُدعين وقلت له إن لم تكن راضيًا عن وجودك فى الدنيا فلم لا تخرج منها؟ فسألنى كيف؟ أجبته: بالانتحار! فتركنى ومضى.

وبالرغم من أن الموت ـ عند معظمنا ـ حدث مخيف مرعب .. ومؤلم .. وبغيض، فإن **هذه المشاعر تقل، وربما تتبدل إلى عكسها، عند نفرٍ أربعة**: شخص اشتاق للقاء ربه واعتبر الدنيا هى الحجاب الأوحد عن هذا اللقاء، وشخص آمن بصدق أن وراء الموت حياة أخرى أفضل وأنه أول منازل هذه الحياة الرغدة الأبدية المُرتَقَبَة، وشخص يرى فى الموت سبيلًا للقاء من ودعه من أَحِبَة تعلق بهم كثيرًا، وأخيرًا شخص يرى فى الموت راحة من مرض عضوى ألم به أو عذابات نفسية صار احتمالها فوق طاقته.

حقيقة الموت...

إذا كنا (على المستوى النفسى) نرفض اعتبار أن الموت مرادف للفناء والعدم، وفى نفس الوقت لا يستطيع العلم المادى أن يقدم لنا رؤية أخرى للموت، فإن خير من يُعَرِفنا حقيقة الموت هو خالق الموت والحياة، فآيات القرآن الكريم تخبرنا أن:

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده.

١ ـ **الموت خلق شأن الحياة تمامًا:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾[سورة الملك]، ومعنى أن الموت «خلق» يتعارض مع النظر إليه باعتباره عدمًا وفناءً.. فالخلق عكس العدم.

٢ ـ **الموت مرحلة من مراحل الأبدية:** ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم]، فالموت سبقه الخلق والرزق، ثم يتبعه بعث ونشور.

٣ ـ **الموت ينقلنا إلى عالم حقيقى، بل قل إلى عالم الحقيقة...** فالموت يكشف عنا حُجُبًا تُغَشِّى عنا الملكوت العلوى ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق]، عندها يرى الإنسان أن الوعد والوعيد حق، وربما يرى نفسه خلال مسيرته فى الأزل والأبد: أين كان وإلى أين المصير؛ فيرى أن الحياة الدنيا كانت كطرفة عين، ويبصر مكانه فى الحياة الآخرة الأبدية ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الواقعة].

٤ ـ **الموت معبر له قوانينه وعواقبه:** ويمكن التكهن ببعض هذه القوانين من خلال مخالفتها للقوانين التى تحكم الحياة، ويمكن التكهن بالبعض الآخر من خلال استمرارية بعض قوانين الحياة التى لا تتأثر بالموت. **فالمجموعة الأولى المخالفة لقوانين الحياة،** أهمها انعدام الإحساس المادى وانقطاع عمل الإنسان، وذلك لتحلل الجسد، ويترتب على ذلك السكون عن الحركة والفعل، والصمت نتيجة لتوقف أدوات الحس والتعبير. **أما المجموعة الثانية التى هى امتداد لقوانين الحياة،** فأهمها استمرارية الذات الإنسانية والحس المعنوى المرتبطين بالروح والنفس، ولعل هذا الحس يزداد بعد فناء الجسم المادى، وهذا الحس المعنوى يتوجه تجاه النعيم أو العذاب.

وفى ختام تأملاتى عن الموت، ربما كان أكثر ما يثير دهشتى هو موقفنا العملى تجاه الموت! فبالرغم من أن الموت هو الحقيقة الأكبر ـ التى ليست بحاجة إلى استدلال واستشهاد ـ فى حياتنا، فإننا **نسلك فى الدنيا كأننا مخلدون، غير مبالين به!** أو كأن الفرار منه محتمل وربما هو الأرجح.

وفى هذا المعنى يقول المولى ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر] صدق الله العظيم.

أنا... بعد الموت

الحياة فى البرزخ

بعد المرور عبر بوابة الموت، ينتقل الإنسان إلى «البرزخ». والبرزخ بمفهوم اللغة والعلم، هو **وجود يفصل بين تكوينات وحيوات، لكل منها مقوماتها الخاصة، بحيث لا تبغى إحداها على الأخرى** ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن].

ويعنى البرزخ فى المفهوم الدينى **وجودًا للنفس بين حياتين: الدنيا والآخرة**، كمرحلة انتقالية تُصَفِّى فيها النفسُ أعمالها الدنيوية وتتهيأ لملاقاة حياتها الأخرى، التى تبدأ بيوم القيامة أو البعث العظيم.

ويكاد الوجود فى البرزخ **يشبه الوجود فى الأرحام**، الذى يفصل بين حياتنا الدنيا وبين حياة غيبية للإنسان تسبق هذه الحياة. ويمكن تشبيه البرزخ بما نلاحظه فى الكائنات التى تمر بأكثر من حياة فى الوجود الذى نعيشه، فوجود **الحشرة فى الشرنقة** يفصل بين حياتها السابقة كدودة وحياتها التالية كفراشة، وفى تلك الشرنقة تتغير الحشرة وتتبدل لاستقبال حياتها الجديدة.

وإن كان الوجود البرزخى **مرحلة انتقالية تسبق البعث يوم القيامة، فالنفس فيها تتنعم أو تتألم بعواقب أفعالها فى الحياة الدنيا**. والدليل على ما يمكن أن يلقاه المرء من **نعيم** قبل يوم الحساب قول الحق ﷻ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٧٠﴾ [آل عمران]. أما الدليل على **العذاب** الذى يمكن أن يلقاه المعاندون والعصاة قبل يوم القيامة، قول الحق ﷻ ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر]. وتستمر حياة الإنسان فى البرزخ حتى يوم

البعث ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون].

أنا ... فى الحياة الأخرى

تبدأ الحياة الأخرى بالبعث؛ والبعث فى المفهوم الضيق هو عودة الروح والحياة إلى الجسد، أى عودة الإنسان إلى الحياة. ولكن البعث فى مقام الحديث عن يوم القيامة يحمل معنى يجاوز ذلك بكثير، إنه **بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة**.

ومن أهم التغيرات التى تحدث مع فناء الحياة الدنيا، **انعدام عنصرى الزمان والمكان وتوقف قانون السبب والنتيجة**. وينعكس ذلك فى الحياة الأبدية على هيئة قوانين جديدة، ربما يعجز فكرنا عن إدراكها، ومن هذه القوانين:

١ - الديمومة والخلود، حيث انعدام قيدُ الزمان:

يحيا الإنسان فى حياته الدنيا فى ظل بديهية أن ما كان له بداية فإن له نهاية، وينبنى على ذلك أن الابتلاء فى الحياة الدنيا ـ كأى امتحان ـ له وقت محدد. أما فى الحياة الأخرى فهناك ديمومة مطلقة ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود]. ويفسر هذا المنظور بعضَ ما سيحدث لذواتنا الإنسانية فى تلك الحياة، فالعمر يثبت عند مرحلة الشباب، والجو يشبه وقت العصر دون تناوب لليل ونهار.

٢ - لا نهائية المكان، حيث انعدام قيدُ المكان:

إذا كانت الأرض ـ فى الوجود الذى نعيشه ـ تكاد تضيق بمن عليها، فما أدراك بالبعث الذى يشمل الخلق جميعًا على اختلاف العصور، وما أدراك بالجنان التى تُخصَّص لكل طائع منيب، لا شك أن ذلك يحتاج **أرضًا غير محدودة المدى**. ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم][1].

(١) يمكننا علميًّا تقبل مفهوم لا نهائية المكان؛ فإذا كانت المسافة بين أى نقطتين تساوى حاصل ضرب السرعة فى الزمن، فإن مقدار المسافات فى حالة لانهائية الزمن لا بد أن تكون لا نهائية.

وإذا كانت ديمومة الزمان ولا نهائية المكان أمور يصعب تصورها، فيمكننا تيسير ذلك **بتأمل ما نراه فى الأحلام**، فللأحلام قوانينها التى لا تراعى الزمان ولا المكان، ففى دقائق معدودة يمكن أن تحيا حياة طويلة تتزوج فيها وتنجب وربما تُزَوِّج أبناءك. كذلك فى دماغنا المحدود يمكن أن نحيا أثناء الأحلام فى مروج شاسعة ونشاهد محيطات لا نهاية لها.

٣ - أما انعدام قانون السبب والنتيجة، فيمكن أن يُفَسِّر العديد من العطاءات التى يعدنا بها الله ﷻ فى الجنة، حيث يجد الإنسان كل ما يخطر فى باله حاضرًا أمامه دون أن يسعى إليه.

ولا شك أن **الناس سيتفاوتون فيما يمر بهم من أحداث فى يوم القيامة**، ما بين أنبياء وصديقين وأولياء يكون عليهم هذا اليوم بمثابة المتعة فى الحضرة الإلهية، وبين كفار وعصاة وفجرة ومنافقين يرون أهوالًا لا تخطر على قلب بشر. وفى النهاية، إما إلى جنان أو إلى نيران. وتفاصيل هذه المراحل كلها خارج نطاق هذا الكتاب، الذى يتحدث عن الذات الإنسانية، لذلك اخترت أن أُنهى هذا الفصل ـ والباب ـ بالحديث عما يجرى على الذات الإنسانية المُنَعَّمة فى الجنان من تغيرات.

طبيعتى ... فى الجنة

إذا كان الإنسان يتركب من خماسية تمثل الذات الإنسانية، ولكل عنصر من عناصرها دوره فى الحياة الدنيا؛ **جسم** يخوض به مسيرة الحياة، **وعقل** يدبر به أموره، **ونفس وقلب** تُعرَض عليهما البدائل، **وروح** هى نفخة من روح الله. فهل ستظل هذه العناصر تؤدى نفس أدوارها فى الحياة الأخرى، أم أن طبيعة ذواتنا الإنسانية ستختلف لاختلاف طبيعة الحياة الأبدية فى الجنة؟

فى الحياة الأخرى، نسأل الله الكريم أن نكون من أهل الجنة، حيث النعيم.. حيث الأبدية.. حيث الانتصار على الشيطان.. حيث النفس المطمئنة.. حيث النشوة فى الحضرة الإلهية.. حيث العطاء الإلهى بكل سعته.. حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، **فى هذه الحياة لا بد أن يعترى التغيير عناصر ذواتنا البشرية**.

فالجسم، قد **تحلل من دورته فى الحياة الدنيا** ـ وهى دورة الطفولة والشباب والشيخوخة ـ ليصير فى شباب دائم ومتصل إلى أبد الآبدين، شباب من طبيعته أن يتضاعف فيه الإحساس بالنعيم. جسم بَرِءَ من أمراضه ليصير فى نضرة وحيوية كاملة، فينهل من النعيم، وهو موفور

الصحة والعافية. جسم تنصل من شيطانه الذى كان يقهره على الفسق والفجور، ليستمتع برغباته فى حب ونقاء، شكرًا وثناء. **جسم تسامت ذاته**، فلا يجد ما يضنيه من فكر وإجهاد ولا ما يشقيه من قهر واستعباد، وإنما هى دائمًا حلاوة القرب والاستغراق فى النعيم. جسم تحرر فى النهاية من الطاعة المفروضة عليه فى جبر وعناء، ليحل محلها المفاضلة بين المتع الحسية والنفسية فى حرية واسترخاء. ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وهكذا يمكن القول **إن جسم الإنسان يعاود سيرته الأولى يوم كان الإنسان فى الجنة** ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]، بل يمكن القول أنه سيكون أكثر سعادة عند عودته إلى الجنة؛ فلن تكون هناك شجرة محرمة عليه! إن ما طرأ على الجسد الإنسانى من تغير فى الحياة الدنيا كان نتيجة هبوطه الأرض، حتى يلائم ظروفه وطبيعة الدور المعقود عليه القيام به، فى الصراع الدائر بينه وبين الشيطان.

والعقل أيضًا، تتبدل وظيفته من الوظيفة المعروفة فى الحياة الدنيا، فيتغير من عقل كادح .. يعمل ليل نهار وفى كل الظروف والملابسات ـ حتى ولو استقر حاضره ـ ليُؤَمِّن مستقبله الذى يجهله، إلى **عقل هادئ مستقر** تَخَفَّف من كل أحماله، حتى صار يرفرف فوق واقعه، **ويهتز فرحة ولذة لنعيمه**. ليس عنده ما يشغله من هم وغم وكرب وموت، وإنما فقط يتنقل من نعيم لنعيم ومن حس لآخر أحسن منه.. بعد أن كُتب له الخلود، وصار من المقربين.

إنه يرتفع هناك إلى حيث مصادره الأولى... إلى حيث العقل الأعظم ... إلى حيث الطمأنينة.. إلى حيث النقاء.... إلى حيث **مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر**.

فهل ما زال الإنسان فى الحياة الآخرة يشعر بالرتابة والملل كما يدعى الماديون ساخرين؟ كلا، ألف كلا.

أما النفس والقلب، الأنا المختارة، عندما تنتقل إلى الحياة الآخرة ـ حيث الوفرة، كل الوفرة ـ فإنها بالطبيعة تتغير من «الأنا المريدة» التى تميز النفس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التى تميز النفس الآمنة المطمئنة. وفارق كبير بين **الأنا المريدة والأنا المحبة**، ذلك أن الأولى طبيعتها الصراع للاستئثار بكل ما هو متاح وغير متاح، ومن ثم ففيها الطمع والجشع وحب الذات... إلخ.

أما «**الأنا المحبة**» فطبيعتها الإيثار والعطاء، ذلك أن الحب يسمو بالنفس ويتعالى بها عن الجشع والطمع. وما منا من عايش حالة حب إلا ووجد نفسه وقد ضحى بالكثير وأعطى المزيد، برضا وسماحة وإنكار كامل للذات.. فما بالك وقد **سَمَت النفس إلى درجات الحب الإلهى**، بالقطع ستسمو فوق الماديات، وتزداد تفان فى العطاء، ولن يغرقها فى النعيم هناك إلا إحساسها بأن ذلك عطاء الله، إذ ستنهل منه بعشق الحبيب... فيتضاعف الإحساسُ بالنعيم مرات ومرات. وقد بَيَّنَ لنا الله ﷻ آلية التحول من «الأنا المريدة» إلى «الأنا المحبة» فى قوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر].

أما الروح، فشأنها شأن آخر، فرحتها تفوق فرحة عناصر الذات الإنسانية الأخرى، لقد قُطع الطريق، وانقضى السفر، وعادت إلى حيث مصدرها، عادت إلى الحبيب المحبوب، كل ما مضى من عناء كان لأجل هذا اللقاء.

وهكذا:

فإن عالم السلام، عالم السكينة، عالم الوفرة، يعكس بالضرورة **سلامًا مع النفس**، يجعلها **راضية مطمئنة**، فى سلام مع الآخرين، حيث تكون تحيتهم فيها سلام.. تصعد «**الأنا**» إلى عليين، وتتفاعل مع عالمها.. فتكون اختياراتها دائمًا تسبيحًا وشكرًا، وتكون متعتها الحسية دومًا قربًا وحبًا، وتكون دعوتها: **أن الحمد لله الذى صَدَقَنا وعده، نتبوء من الجنة حيث نشاء، فنعم أجر العاملين.**

كيف السبيل

إن الطريق لتحصيل هذا النعيم يبدأ بمجاهدات للنفس، يقوم بها الإنسان فى الحياة الدنيا، حتى يتسنى تكبيل الذات الإنسانية المريدة **بالعقل**.

ومن ثم، على الإنسان أن **يجاهد نفسه المريدة** بكل عوالقها من طمع وجشع وحسد، لترقى إلى نفس محبة تسمو فوق الماديات فى إيثار وعطاء.

وعليه أيضًا أن **يجاهد نفسه القلقة المتوترة** التى تجزع وتحزن وتفزع لكل ما يصيبها من قضاء، لتصبح نفسًا مطمئنة راضية بما قُدِّرَ لها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر].

فكأن طمأنينة النفس فى الحياة الدنيا، وصقلها بالحب الإلهى، وقهرها لشهواتها، والتحكم

فى غرائزها، والسيطرة على دوافعها من استئثار وجشع، والرضاء الكامل بقضاء الله باعتبار أنه صادر عن خالق حكيم دونه إدراكاتنا.. كل هذه هى **مؤهلات الإنسان** التى ينبغى أن يتحصل عليها من دنياه.. للرجوع إلى الخالق ودخول الجنة.

والمحصلة النهائية، **أن الذات الإنسانية بمكوناتها؛ الجسم والملكات العقلية والنفخة الغيبية تتغير لتتلاءم مع حياة النعيم فى الجنة، شريطة أن يكون الإنسان قد أَهَّلَ نفسه فى حياته الدنيا لتقبُّل هذا التغيير والتبديل.**

القارئ الكريم

ذكرنا فى بداية الفصل أن **الحضارات الإنسانية والديانات المختلفة** تكاد تُجمع على الربط بين الموت ومغادرة الروح للجسد، أما **الطب**، فيعتبر أن موت الأجهزة الحيوية الثلاثة، القلب والجهاز التنفسى والمخ يُعتبر موتًا للجسد. ثم ربطنا بين هذين المفهومين (الدينى والطبى) للموت.

ومن أجل المزيد من الفهم لطبيعة الموت، أوضحنا أن خلق الإنسان يمر بمرحلتين:

مرحلة خلق جسد الجنين وتسويته وبث آليات الحياة فى خلاياه، تلك الآليات التى تشارك الإنسان فيها سائر الكائنات الحية. ثم تأتى **مرحلة نفخ الروح فى الجنين بعد تسويته**، وهذه المرحلة خاصة بالإنسان وحده دون سائر المخلوقات. معنى ذلك أن آليات حياة الخلية والروح أمران ضروريان لحياة الكائن الإنسانى، وكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به، فاكتمال تسوية جسد الجنين شرط لازم لنفخ الروح فيه، كما أن حياة الإنسان ترتبط بوجود الروح فيه.

ويبين القرآن الكريم **أن الموت هو مقابل أو نقيض الحياة**. ومن ثم فإن الموت يتكون أيضًا من مرحلتين، هما **مغادرة الروح للجسد** بالإضافة إلى **توقف آليات الحياة فى الجسد**. وقد أثبتنا أن **الروح تغادر الجسد قبل توقف سر الحياة فى الجسد عند الموت**.

لذلك إذا جَزَمَ الطب **بموت المخ** موتًا نهائيًّا لا رجعيًّا، فقد غادر مكونا الحياة جسد الإنسان، أى «غادره الروح وغادرته آليات حياة الجسد». وبالتالى فإن **الإنسان الميت مخيًّا هو إنسان «مُتوفى» بالمفهوم الدينى كما أنه «ميت جسديًّا» بتعريف الطب**. وفى هذه الحالة، قد تتبقى ـ لفترة ـ حياة خلوية لأنسجة تعمل منفردة معتمدة على أجهزة صناعية، وهى أقل درجة من

حياة النبات ومن حياة الجنين داخل الرحم قبل نفخ الروح فيه، وهى شبيهة بعمل أجزاء الأجهزة الصناعية المفككة التى لا تستطيع أن تعمل بشكل تكاملى.

وتبين آيات القرآن الكريم أن **الموت خَلْقٌ شأن الحياة تمامًا**، وأنه **مَعْبَر بين مسيرتين، ينقلنا إلى عالم الحقيقة. وللموت قوانينه التى تحكمه**، وأهمها انعدام الإحساس المادى وانقطاع عمل الإنسان، فهى النشاطات المرتبطة بالجسد الذى يبلى، وفى الوقت نفسه يستمر الحس المعنوى، والشعور بالذات الإنسانية لارتباطها بالروح والنفس.

ولا تُعتبر الحياة الآخرة مجرد عودة الروح والحياة إلى الجسد، بل **إن البعث يمثل بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة**، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة. وأهم تلك القوانين الجديدة الديمومية والخلود ولا نهائية المكان، حيث انعدام قيد الزمان وقيد المكان، والحياة فى معزل عن قانون السبب والنتيجة.

كذلك فإن تلاشى قوانين الطبيعة وبزوغ قوانين الحياة الجديدة، يتطلب حدوث **تغيرات فى الذات الإنسانية**، تشمل عناصرها جميعًا، لتتلاءم مع حياتها فى الجنان، **شريطة أن يكون الإنسان قد أَهَّلَ نفسه فى حياته الدنيا لتقبل هذا التغيير والتبديل.**

***

حصاد الرحلة

واكتملت الرحلة...

والاكتمال غير الكمال، **فالكمال لله ﷻ وحده**، أما الاكتمال فهو أن تُتم ما سبق أن خططت له ووضعت حدوده وأبعاده، بقدر مقبول من التوفيق. وقد كان المقصود من هذه الرحلة أن **نُعَرِّف الإنسان بذاته الإنسانية**، كما تنظر إليها العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والعلوم الدينية، خاصة بعد أن جارت على الرؤية الصافية مفاهيم زائفة صارت تتردد كأنها حقائق علمية، كالحتمية البيولوجية والحتمية التربوية، والمادية الجذرية والنسبية المطلقة، وما بعد الحداثة... أما جناية الداروينية على الذات الإنسانية فلم تقف عند المفاهيم التى تطرحها كنظرية علمية، بل سادت كل مجالات الحياة وحولتها إلى حلبة صراع وميدان معركة، فصرنا نسمع عن الداروينية السياسية، والداروينية الاجتماعية، والداروينية الاقتصادية، والداروينية فى الأدب، و...

إن هدفنا هو أن ننقى نظرتنا لأنفسنا من سموم شوهت الإنسان وجعلته مسخًا. **حتى إذا ما صفت الرؤية، تمكن الإنسان ـ بشكل أيسر ـ من أن يسلك نهجًا حياتيًّا أكثر انسجامًا مع طبيعته وفطرته وأكثر تحقيقًا لرسالته.**

ولا شك أننا فى حديثنا عن الذات الإنسانية كنا بعيدين عن الإحاطة الكاملة، فهذا فى حكم المستحيل، لذلك اقتطعنا من العلوم المختلفة **نماذج تعبر عن نظرة كل علم**، وتحقق الهدف الذى قصدنا إليه، وجمعنا هذه النماذج بشكل متناسق فى الباقة التى بين يديك. **والآن إلى حصاد الرحلة:**

أنا... فى العلوم الطبيعية

أولًا: أنا ذاتٌ عاقلة

١ - يتميز الإنسان على غيره من الكائنات **بالملكات العقلية**، التى جعلته يسود كوكب الأرض، ويتطلع إلى الكواكب الأخرى؛ فى الوقت الذى أوشك أقرب الكائنات إليه جينيًّا وجسديًّا - وهو الشمبانزى - على الانقراض. ولشدة تعقيد آليات العمليات العقلية الإنسانية فإن اضطرابها يؤدى إلى العديد من **المشكلات** التى تفوق خيال أشد المؤلفين القصصيين جموحًا !

٢ - عند الحديث عن الملكات العقلية، ينبغى أن يكون «**الوعى**» أولها، فالإنسان غير الواعى لا يمكنه أن يمارس باقى النشاطات. وأول ما يتمخض عنه الوعى الإنسانى هو «**الإدراك**»؛ إدراك الإنسان لذاته وللمحيط. ويتلو الإدراك عملية «**الفهم**»، التى لولاها لارتد طفلًا لا يفهم معنى ما يعى ويدرك ولا يتفاعل معه.

٣ - ومن بديهيات الذات الإنسانية العاقلة استشعارها أن جميع سماتها ونشاطاتها تخص «**جسدها المادى المتوحد**»، وأنها بالأمس هى هى اليوم، وأنها يمكن أن تنتقل بخيالها إلى المستقبل، أى أنها «**ذات ممتدة عبر الزمن، وقادرة على الانتقال فيه**».

٤ - وربما كانت «**حرية الإرادة**» من أهم سمات ذواتنا العاقلة التى أثبتها العلم، وحررنا بذلك من مفهومى الحتمية البيولوجية والحتمية التربوية اللذين يتخيلهما بعض البيولوجيين والتربويين، وأيضًا مفهومى الجبر والتسيير اللذين أوقعنا فيهما بعض الفلاسفة ورجال الدين.

٥ - ولا شك أن الإنسان هو الكائن الأوحد الذى يتمتع بـ«**حياة عقلية داخلية خيالية**» تمكنه من تصور البدائل، وتَوَقُّع الأفضل والأسوأ، وتقدير النتائج مُسبقًا والتخطيط لتحقيق أفضلها، ولا شك أن هذا الخيال يقف وراء العلم والفن والفلسفة والدين.

٦ - ولا يكون الخيال مثمرًا ومبدعًا ما لم يتمتع الإنسان بـ«**الذكاء**». وقد ثبت - حتى الآن - أن الذكاء الإنسانى عشرة أنواع، تمارس نشاطاتها فى مختلف مجالات الحياة الإنسانية، ولكل منها مركزه المخى المتخصص.

٧ - والإيمان بأن «**وراء كل حدث سبب**» مَلَكَة فطرية غريزية فى عقولنا، تقف وراء سعى الإنسان الحثيث من أجل تفسير الأحداث. ولولاها لتخبط العقل البشرى فى جميع الاتجاهات على غير هدى. ولِدَفع الإنسان للبحث عن هذه الأسباب، زُوِّدَ العقل البشرى بمَلَكَة «**حب الاستطلاع والبحث**»، التى أعانته على تحمل مخاطر جَمَّة من أجل اكتشاف أسباب وآليات ما يمر به من أحداث، وأيضًا من أجل اكتشاف المجهول.

٨ - والإنسان «**كائن اجتماعى تعاطفى**»، اُشتق اسمه من الائتناس بغيره. ولولا ذلك لما أنشأ مؤسسة الأسرة التى هى لبنة بناء المجتمعات، ولعاش وحيدًا عاجزًا عن الدفاع عن نفسه. وقد زَوَّد السلوك الاجتماعى الإنسان بالقدرة على الصمود ضد أعدائه ونَجَّاه من الانقراض كغيره من الكائنات.

٩ - لقد كان ظهور «**اللغة الإنسانية**» انبثاقًا مفاجئًا، وليس نتاج تطورى لوسائل تواصل أسلاف الإنسان، لذلك أطلق ناعوم تشومسكى على نشأة اللغة اصطلاح «**الانفجار اللغوى الأعظم**». وقد مكنت اللغة الإنسان من الترميز لكل شىء باسم، مما أعانه فى عملية التفكير، كما مكنته من التواصل الاجتماعى ونقل المعلومات للآخرين وتوارثها عبر الأجيال، وبذلك صار الإنسان إنسانًا، وتمكن من بناء حضارته.

١٠ - كما وُهِبَ الإنسان بالفطرة «**ذاتًا فنانة متذوقة للجمال**». وقد أثبت العلم أن تذوق الجمال عملية بيولوجية موضوعية وليست أمرًا ذاتيًّا ليس له مقاييس. وقد توصل العلماء إلى المراكز المخية التى تتذوق الجمال، وهى نفس المراكز التى تُبدع الفن. كما توصلوا - حتى الآن - إلى **عشرة قوانين لها آلياتها المخية، تحكم الحس الجمالى والتذوق الفنى**، وبذلك صار الجمال والفن علمًا تطبيقيًّا بعد أن كانا محصورين فى نطاق العلوم الإنسانية.

١١ - وربما كان أعظم الإنجازات فى مجال المخ والأعصاب خلال العشرين عامًا الماضية هو اكتشاف ما يُعرف بـ «**عصبونات المحاكاة**»، وهى الخلايا العصبية التى تتنشط عندما يمارس الكائن عملًا ما، وأيضًا عندما يرى هذا العمل يُمارَس أمامه. وقد فسر وجود هذه العصبونات **الكثير من نشاطات الإنسان الحركية والحسية والشعورية والتعليمية**، كما كان لها دور رائد فى نشأة اللغة وبناء الحضارات. كما يمكن القول إن هذه العصبونات ربطت بين الناس حتى **صاروا جميعًا كأنهم فرد واحد**.

١٢ – وقد أثبت العلم أن الرجال والنساء ليسوا متماثلين فى النشاطات العقلية، وأصبح يتحدث عن «**المخ/ العقل التنظيمى الذكورى**» و«**المخ/ العقل التعاطفى الأنثوى**»، بعد أن ثبت أن هناك فوارق بيولوجية فى بنية وطريقة أداء أمخاخ كل من الجنسين لوظائفها، فوارق تقف وراءها عوامل جينية وهورمونية ثم تربوية. وقد فسرت تلك الفوارق الاختلافات السلوكية والعقلية والشعورية بين كل من الرجال والنساء.

١٣ – وفى مجال «**نشاطات الإنسان الروحية**»، أثبت العلم أن **المخ البشرى مزود بآليات للتعامل مع بنية الدين**، تبدأ بالقدرة على الفهم العقلى للوحى السماوى، ثم وجود الشوق الفطرى تجاه مفاهيم الإلوهية والدين، ثم الرغبة الفطرية فى تجسيد المفاهيم العقلية، ثم القدرة على تحويل المعتقدات العقلية إلى تجارب حسية ذاتية، وأخيرًا القدرة على إغلاق الدوائر المخية للشعور بالذات وبالوسط المادى المحيط، مع استحضار مشاعر التسامى، ثم التواصل مع عوالم الغيب الحقيقية.

وكما يمكن تدريب الجسم لتحسين مهامه الجسدية، فيمكن **تحسين آدائنا العقلى والروحى** من خلال مجاهدة النفس والتأمل وممارسة العبادات والتدريبات العقلية والروحية.

ألم يكن سير ألفريد والاس محقًا ـ خلافًا لدارون ـ حين أعلن **أن مَلَكَة العقل نفخة إلهية**.

ثانيًا: الوعى يقهر اللاوعى

١ – تقوم تنشئة الوالدين لأطفالهما بدور كبير فى برمجة عقولهم ابتداء من المرحلة الجنينية، ولا تقل أهمية هذا الدور ـ بل تزيد ـ عن البرمجة الجينية الوراثية، ويقوم بدراسة هذا الدور علم جديد يُعرف بـ «**علم التحكم فى الجينات**». لذلك أصبحت تنشئة الوالدين لأطفالهما نوعًا من «**الهندسة الوراثية**» إذ تقوم بتنشيط أو تثبيط بعض الجينات التى لها دور فى توجيه سلوك الأطفال وحالتهم النفسية والعقلية.

٢ – وإذا كانت التنشئة السوية لأطفالنا فى جو من الحب والتوافق تُنتج أطفالًا أسوياء، فإن افتقاد هذا الجو يُطفئ جذوة التعاطف فى نفوسهم، **ويفرز أنماطًا متعددة من الانحراف النفسى والسلوكى**.

٣ – وإذا كانت الجينات تحدد **الاستعداد الوراثى للطفل**، فإن التنشئة تحدد **نوع السلوك** الذى يتبناه الشخص فى إطار هذا الاستعداد. كذلك لا يفيد كثيرًا أن يمتلك الجنين جيناتٍ إيجابية إذا كان سيواجِه من الإهمال وسوء التربية ما يثبط تلك الجينات.

٤ – وتقوم التنشئة بدور كبير فى **برمجة عقلنا اللاواعى** على العديد من المفاهيم التى ستُعتبر بديهيات عقلية وتوجه مشاعر وسلوك الإنسان فيما بعد، تمامًا كما يقوم الطيار الآلى بتوجيه الطائرة. لذلك فإن من أهم أسباب ما يعانيه البشر من صراعات نفسية هو التعارض بين طموحاتنا الواعية وبين ما تم برمجته فى عقولنا اللاواعية.

٥ – وقد أثبت العلم، أن الإنسان قادر بوعيه (بعد تدريبات شاقة) على **تغيير ما تم برمجته فى اللاوعى**، بل وقادر أيضًا على **التحكم فى وظائف جسمه اللاإرادية** مثل نبضات القلب ومعدل التمثيل الغذائى. لذلك يهتم الطب النفسى من خلال «**العلاج المعرفى**» بتعديل الخريطة المعرفية للإنسان، والتى تحدد أولوياته الواعية واللاواعية، من أجل علاج المريض من العديد من مشكلاته وأمراضه النفسية.

ثالثًا: لسنا روبوتات

١ – أثبت العلم **خطأ النظرة** التى سادت علم البيولوجيا لعقود، باعتبار أن الشفرة الوراثية (**الجينات = الدنا DNA**) **هى سر حياة الخلية**، وأن النواة التى تحمل الجينات هى بمثابة **مخ الخلية**. والدليل على خطأ ذلك أن الخلية إذا نُزِعَت نواتها تستمر فى الحياة لفترة تصل إلى شهرين، وإن كانت تفقد القدرة على التكاثر وعلى إنتاج بروتينات جديدة.

٢ – فى المقابل، يمكن اعتبار **غشاء الخلية هو سر حياتها والقائم بمهام المخ فيها!** فهذا الغشاء هو المسئول عن استشعار ما يدور خارج وداخل الخلية، ثم توجيه أنشطة الخلية تبعًا لما يستقبله من معلومات، كما أنه المسئول عن التحكم فى نشاط الجينات، كذلك يقوم هذا الغشاء بتوجيه تفاعل الخلية مع العوامل التربوية والحالة النفسية للإنسان. إن كل ذلك يعنى **كذب مفهوم «الحتمية البيولوجية»** الذى يرى أننا أسرى للشفرة الوراثية المُبرمَجة سلفًا فى جيناتنا.

٣ – وبذلك أسدت «**البيولوجيا الجديدة**» الستار على عالم الداروينية، الذى يصور الدنيا كحلبة للصراع بين روبوتات ينتصر فيها الأقوى، وفى نفس الوقت فَتَحَت آفاقنا على

حياة جديدة يتعاون فيها البشر من أجل الحياة فى سعادة وحب، تلك الحياة التى يتفاعل ويتناغم فيها الإنسان مع الوجود من حوله.

رابعًا: قوى الخفية أشبه بالخيال

١ - أظهرت الأدلة العلمية الجديدة **أهمية دور الطاقات الحيوية والكونية فى النشاطات البيولوجية والعقلية والنفسية للإنسان**. فقد ثبت أن للمجالات المغناطيسية الكونية وكذلك للحقول المغناطيسية الأرضية تأثير على العديد من نشاطات الإنسان الفسيولوجية وعلى النشاط الكهربائى للدماغ، مما يؤثر على قدراتنا وصحتنا ووعينا ومزاجنا ومشاعرنا الروحية، مما يجعلنا **جزءًا من منظومة الوجود نتأثر بها إلى حد يفوق توقعاتنا**.

وتُعتبر «**ظاهرة الإفضاء**» من أكثر الظواهر الفيزيائية غموضًا، وفيها يتم تبادل الطاقة والتجاوب بين منظومات فيزيائية (كحركة بندولين) وبيولوجية (كدقات قلبين) وكذلك بين كل موجودات الكون،مما يؤدى إلى **قدر من التوحد الحركى والانفعالى!**

كذلك ثبت **أن أشكال الحياة المختلفة متوالفة بدقة مع بعضها البعض** (الإنسان ـ النبات ـ الحيوانات ـ الكائنات البدائية) وأن الكائنات الحية ترسل معلومات تخاطرية فيما بينها فى كل لحظة، وهو ما صار يُعرف «**بتأثير باكستر**».

ويمارس بعض الخبراء «**علاج المرضى عن بعد**»، عن طريق التركيز العقلى. كما تمارس حضارات الشرق الأقصى أنواعًا من العلاجات للأمراض المختلفة، مستغلة مجالات الطاقة، «**كالعلاج بالإبر الصينية**». ويعجز العلم التقليدى عن تفسير العديد من الظواهر، كالقدرة على تحريك الأجسام عن بُعد، وتوارد الخواطر، والرؤى الصادقة. وكذلك ما يُعرف بـ«تأثير الجريملين»، والذى يعنى قدرة أفكارنا بل وحالتنا النفسية على التأثير عن بعد على الأجهزة الإلكترونية.

٢ - من أهم القضايا التى تشغل الفيزياء الحديثة اليوم، أن المكونات تحت الذرية يتأثر بعضها ببعض مهما كانت المسافة بينها، ويُعرف ذلك بـ«**مفهوم التشابك**». وحديثًا ثبت أن التشابك يحدث على مستوى الذرات والجزيئات والبللورات الكبيرة. كما ثبت أن جزيئات المادة كبيرة الحجم قادرة على **التواجد فى مكانين فى آن واحد**، أى أنها ليست

مستقرة، وأنها تحت ظروف معينة تتجاهل قوانين نيوتن وتخضع لقوانين الكوانتم! إن هذه الاكتشافات تثبت أن **هناك قانونًا واحدًا للفيزياء**، ومن ثم إذا كان للراصد دور فى فيزياء الكم، فهل يمتد هذا الدور إلى عالم الأجسام الكبيرة؟

٣ - وقد ثبت أن الكثير من التأثيرات السابقة تتم عن طريق **المجالات الكهربائية والمغناطيسية**، بل لقد أمكن تصميم أجهزة قادرة على تسجيل وقياس مجالات الطاقة التى تنتجها **نشاطاتنا العقلية** التى تمارَس من خلالها بعض التأثيرات السابقة.

٤ - ومن أعظم الاكتشافات البيولوجية فى الربع الأخير من القرن العشرين اكتشاف «**الانبعاثات الفوتونية الحيوية**». فقد ثبت أن جميع الكائنات الحية تبعث تيارًا ضئيلًا مستمرًا من الفوتونات (وحدات الضوء)، التى اُعتبرت من أهم وسائل التواصل بين أجزاء الكائن الحى، وبين مختلف الكائنات، وكذلك بينها وبين العالم الخارجى. وقد أمكن تصوير هذه الفوتونات بوضوح مذهل وهى تنبعث من مختلف أعضاء الكائنات الحية. كما أمكن تصويرها وهى تتدفق من أطراف أصابع خبراء المعالجة عن بعد.

٥ - وقد أثبتت تجارب ويليام تيللر أن **التركيز الذهنى ونشاطاتنا العقلية (أفكارنا ونوايانا) تصدر طاقات (يمكن تخزينها ونقلها) قادرة على إحداث تأثير على بعض العمليات الكيميائية والبيولوجية فى الوسط المحيط!**.

٦ - وبعد أن كان العلم ينظر لفيزياء الكم باعتبارها أم الفيزياء، وينطلق منها لتفسير جميع الظواهر الفيزيائية، فقد توصل العلم اليوم إلى ما يعرف بـ«**فيزياء الفراغ**» التى ينبغى اعتبارها نقطة الانطلاق فى تفسير كل ما يجرى فى كوننا (الكبير والصغير = الإنسان). فالفراغ يحوى كمًّا هائلًا من الطاقة الكامنة غير المتشكلة، وربما كان تأثير الوعى/ الأفكار/ النية البشرية على ما حولنا يتم من خلال تحويل جزء من هذه الطاقة الكامنة إلى طور فَعَّال يمكنه التأثير على العالم الفيزيائى.

٧ - إن ذلك يؤكد أن **الوجود كله وحدة متشابكة، وأن الإنسان يؤثر بعقله ونيته وإرادته فى العالم المادى وفى حقائقه الفيزيائية**، وأن الطبيعة أغرز كثيرًا وأغنى كثيرًا من كل تصوراتنا، إننا مجرد أطفال نحبى تحت أقدام الوجود.

٨ - ينبغى التحذير من أن قدرة عملياتنا العقلية على التأثير على العالم الفيزيائى يتم إساءة

استغلالها من قِبَل «**دجالين**» غير متدربين، مستغلين فى ذلك حاجات الناس الاجتماعية والنفسية والصحية.

خامسًا: أنا نتاج التطوير الإلهى

١ - لا شك أن نظرية التطور لدارون هى أكثر النظريات ـ عبر التاريخ ـ إثارة للجدل. وتتكون النظرية من شقين رئيسيين: الأول، أن لكل الكائنات الحية سلفًا مشتركًا واحدًا (أو أسلاف قليلة) نشأت عنه بالتطور البيولوجى. والشق الثانى، أن التطور حدث بآلية الانتخاب الطبيعى بعد حدوث طفرات عشوائية. والأدلة العلمية تؤكد الشق الأول، لكنها تثبت تمامًا **عجز العشوائية عن إحداث التطور**.

ونضيف إلى ذلك ـ بخصوص الإنسان ـ **عجز التطور العشوائى عن تشكيل المخ البشرى وإمداده بقدراته العقلية المتميزة**. وقد حدا ذلك سير ألفريد والاس (نظير دارون) إلى اعتبار العقل البشرى نفخةُ إلهية. كما حدا ناعوم تشومسكى (حُجة علم اللغويات) إلى اعتبار أن نشأة اللغة الإنسانية (التى هى أهم تجليات العقل البشرى) كانت عملية انبثاق فجائية.

٢ - نتيجة للمفاهيم السابقة، ظهرت فى العالم مدرسة تتزايد قوتها، تتبنى مفهوم «**التطوير الإلهى**». وتقبل هذه المدرسة مفهوم تطور الكائنات الحية، وفى الوقت نفسه ترى أن عملية التطوير وكذلك نشأة العقل البشرى قد احتاجت إلى قدر هائل من العلم والذكاء والإبداع، مما تعجز عنه العشوائية، ولا يتوافر إلا **لإله حكيم قادر**.

٣ - يرجع انفصال أشباه الإنسان عن السلف المشترك الذى جمعه بباقى الرئيسيات إلى قرابة **٨ ملايين عام**. لقد كان **القرد الجنوبى** أول أشباه الإنسان التى عثر على حفريات لها، ثم تطور عنه أول أنواع جنس الإنسان، وهو **الإنسان الصَّنَاع**، ثم **الإنسان منتصب القامة**، الذى يُعتبر سلفًا **لإنسان نياندرتال** (منذ ٢٠٠ ألف سنة) **وإنسان كرومانيون** (منذ ١٣٠ ألف سنة) الذى هو الإنسان العاقل الحديث. والرأى الأرجح أن كل هذه التطورات قد **حدثت فى قارة أفريقيا**، التى يمكن اعتبارها مهد الجنس البشرى.

٤ - يمكن تلخيص **الملامح التطورية لـ «جسد الإنسان الحديث»** التى انفصل بها عن أسلافه فى أربع نقاط رئيسية: الزيادة التدريجية المطردة فى حجم المخ، السير على القدمين منتصب القامة، تغيرات جوهرية فى بنية وأداء اليد، إعداد الحنجرة لإنتاج

الكلام، وهى الخطوة التى تمت قبل بدء الإنسان فى الكلام بمئات الآلاف من السنين، مما يثبت أنها كانت عملية تكيف مسبق، تم الإعداد فيها (قصدًا) لنشأة اللغة. كما أثبتت الدراسات أن مجرد **الزيادة فى حجم المخ البشرى** ليست كافية لظهور قدراته العقلية المتميزة، وإن كانت هذه الزيادة قد سمحت بزيادة القدرة التخزينية المعلوماتية للمخ البشرى بقدر هائل. وقد حدثت هذه الزيادة بشكل خاص فى **القشرة المخية للجزء الأمامى من الفص الجبهى**.

٥ - وعلى المستوى الجينى، يتفق الإنسان مع أقرب الرئيسيات إليه وهو الشمبانزى إلى حد التطابق (١٠٠٪)، وبعد استبعاد الجينات الخاملة يصل تشابه الجينات العاملة إلى ٩٨,٧٪، مما يشير إلى أن العامل الحاسم فى تميز الإنسان (على المستوى الجسدى) هو **تنشيط بعض الجينات الخاملة**. وقد توصل العلماء بالفعل إلى تلك الجينات التى تم تنشيطها.

أنا... فى العلوم الإنسانية

سادسًا: الذات الإنسانية حَيَّرَت العقل البشرى

١ - تُعتبر «**الفلسفة الغربية**» (الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الحديثة)، فى نظرتها إلى الذات الإنسانية، أكثر الأنماط تجردًا كعمل عقلى بعيد عن الروافد الدينية. وقد أدرك معظم فلاسفة هذه المدرسة **ثنائية الروح / العقل ـ الجسم فى الإنسان**، ثم انقسموا إلى فريقين رئيسيين؛ الأول يرى أن **الروح موجود مادى** يتكون من نفس ذرات المادة فى أدق صورها (كالهواء والنار) وأهم هؤلاء هم الفلاسفة الذريين فى مرحلة ما قبل سقراط. والفريق الثانى يرى أن **الروح / العقل جوهر لا مادى**، وأشهرهم الفيثاغورثيون وأرسطو ثم الديكارتيون فى الفلسفة الحديثة.

٢ - تُقابلنا فى الفكر الشرقى القديم، الديانة «**الهندوسية**»، كمزيج متباين من الفكر الدينى والعمل العقلى والنظرات الفلكلورية، وفيها نجد ثنائية الروح/ العقل ـ الجسم ظاهرة تمامًا فى حياة الإنسان الحالية. وبعد أن تنتهى دورات التناسخ، تتحرر الروح وتفنى

الجسدية، **وترتد الثنائية إلى واحدية**، ليست للكائن الإنسانى وحسب، لكنها **وحدة وجود مطلقة** ليس فيها فرق بين والموجد الموجود ولا بين السبب والنتيجة.

٣ - لم تكتف «**البوذية**» بأن تكون محاولة للتحرر من سطوة رجال الدين الهندوس، بل أصبحت **تحررًا من الدين ككل**. فبوذا ـ انطلاقًا من تجاربه الذاتية ـ أنكر الوجود الإلهى، كما أنكر وجود الذات الإنسانية! بعد أن اعتبر أن كل ما يقوم به الإنسان هو مجرد **خصائص ونشاطات لا ترجع إلى ذات فاعلة**. وبالرغم من ذلك نجد البوذيين اليوم **يقدسون بوذا** ويضعون تماثيله ضمن تماثيل آلهة الهندوسية، ولا أرى ذلك إلا استجابة لفطرة عارمة داخل الإنسان تدفعه للبحث عن الإله الخالق.

٤ - ترجع نظرة «**الفكر المصرى القديم**» بخصوص الذات الإنسانية إلى **أصول دينية سماوية**، بينما **اقتصر دور العقل على صياغة التفاصيل**، التى إذا جُردت يتبقى **تصور عقائدى واضح لا يختلف كثيرًا عن معتقداتنا الدينية**. فالمصرى القديم يؤمن **بثنائية الإله الخالق والإنسان المخلوق، كما يؤمن بثنائية الروح ـ الجسم**، سواء فى الحياة الدنيا أو فى الحياة الآخرة. وقد انعكست هذه النظرة على حياة المصرى القديم، سواء فى سلوكه، أو عاداته وتقاليده، أو هندسته ومعماره.

٥ - إذا كان «**لكل جواد كبوة**» فإن العقل الإنسانى قد أصاب أحيانًا وكَبَا أحيانًا أخرى فى سعيه لفهم الإنسان. ولعل العقبة الكؤود التى أعاقته عن الوصول إلى كمال الحقيقة هى أن **إدراك الشىء على حقيقته يحتاج إلى مُدرِك أعلى**؛ لذلك فإن النظرة فى المرآة لا تعكس إلا الصورة الظاهرة، ولكن ألا يكفى العقل الإنسانى شرف المحاولة؟!

سابعًا: هكذا بَنَيْتُ الحضارة

١ - لا شك أن ما مَكَّنَ الإنسان من البقاء ثم الانتشار وبناء الحضارات هو مزيج مُحْكَم التوازن من عناصر ثلاث؛ **العقل ـ والبنية الجسدية ـ والسلوك الاجتماعى الفطرى**. وقد دفعت الميول الاجتماعية الإنسان لابتكار **مؤسسة الأسرة** والمحافظة عليها، فكانت اللبنة التى قامت عليها الحضارة الإنسانية وحَمَتْ الإنسان من الانقراض.

٢ - عاش الإنسان فى المراحل الأولى من وجوده كأسر متناثرة، **يمارسون الصيد** الذى تخصص فيه الرجال **وجمع الثمار** الذى كانت تقوم به النساء بالإضافة لرعاية الصغار،

وقد حقق هذا النمط المعيشى للإنسان قدرًا من الرفاهية وفرص الترفيه، بشكل غير متاح لكثير من الشعوب الآن!. وعندما استشعر الإنسان أهمية الحياة الجماعية بدأت الأسر فى **الاجتماع فى مجموعات** تحقق لها الأمان. وكلما نضبت الموارد فى منطقة، كان قاطنوها يحزمون متاعهم الخفيف **ليرحلوا إلى** أماكن أخرى.

٣ - ثم انتقل الإنسان تدريجيًّا (فى مختلف أنحاء العالم) من حياة الصيد وجمع الثمار إلى «**إنتاج الغذاء**». وصحب ذلك عملية **تهجين للنباتات وأيضًا للحيوانات**، وقد سمح ذلك بوفرة غذائية سدت احتياجات الأعداد المتزايدة من البشر. وبذلك استقر الإنسان فى «**قرى زراعية**» أخذت فى التزايد عددًا واتساعًا على حساب مناطق معيشة الصيادين وجامعى الثمار.

٤ - منذ أكثر من عشرة آلاف سنة قامت «**الثورة المدنية**»، فبدأت المدن فى الظهور، كمراكز صناعية وتجارية بعد أن استقرت مجموعات كثيفة من السكان قرب مصادر المواد الخام. وقد تطلب ذلك إنشاء **تحصينات دفاعية** وتكوين طبقة متخصصة من الجنود المتفرغين للحماية من السلب والنهب والدفاع عن المدن. كما مدت تلك المدن المحصنة القوية سيطرتها على المناطق المحيطة وألقت على كاهل الفلاحين عبئًا هائلًا من أجل توفير الغذاء والسلاح وإعداد الجيش بالأفراد. وكانت هذه المدن **بداية لنشأة الإمبراطوريات فى العالم القديم**، وبذلك انقسمت المجتمعات إلى طبقة حاكمة متميزة وطبقات فقيرة مطحونة.

ولا شك أن الانتقال من حياة الصيد وجمع الثمار إلى حياة القرية، ثم قيام الثورة المدنية، قد صاحبه **تغيرات جذرية فى كل مجالات الحياة**؛ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصحية.

٥ - ومنذ قرابة ٧ - ٨ آلاف سنة، دفعت الحياة المدنية **نشأة «الكتابة» وتطورها وانتشارها** خطوات واسعة للأمام، فقد كانت ضرورية لتسجيل المعاملات المادية وكذلك إعطاء القوانين والقرارات الإدارية صفة الديمومة والذيوع. وقد تطورت الكتابة من رسوم للأشياء، إلى رسوم تمثل المعانى، إلى رموز كانت هى بداية حروف الهجاء.

٦ - خلال القرن الأخير، تغيرت الحياة الإنسانية فى كل مناحيها بسرعة أكبر وبشكل أشمل مما حدث طوال العشرة آلاف سنة السابقة، وتُعَد هذه التغيرات إفرازًا للثورة الصناعية فى أوروبا الغربية.

وقد حقق هذا «**التحديث**» للإنسان مستويات من الرفاهية وزيادة متوسط العمر لم يكن يحلم بها، كما أنشأ أنظمة ديمقراطية قل معها الاستبداد الفردى. وفى المقابل، **صاحَب التحديث سلبيات عديدة**، أهمها تلاشى انتماء الفرد لعائلته وعشيرته ودينه بل ولأمته، لحساب زملائه فى المهنة والنظام الوظيفى. كما حدثت **تغيرات جذرية على المستوى الشخصى**، لا تحقق للإنسان أهدافه وغاياته الطبيعية، بل فرضت عليه أهداف وغايات لا تتناسب مع احتياجاته الفطرية، **فشعر الإنسان بالاغتراب**، حتى إن الكثير من الأنثروبولوجيين يرون أن أسلافنا من الصيادين وجامعى الثمار كانوا أسعد منا حالًا.

٧ - لقد سمح الموقع الجغرافى والطبيعة المناخية **لوادى النيل** بأن يكون «**جنة الخلد**» التى لجأ إليها إنسان العصر الحجرى الفار من جفاف وتصحر هضبة شمال أفريقيا، فكونوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء نباتيًا وحيوانيًا ثابتًا، كما استخرجوا وشكلوا المعادن، واخترعوا أقدم نظام كتابى، وأنشأوا بذلك فى مصر القديمة **أول دولة متحضرة كبيرة فى التاريخ**، يحكمها ملك واحد منذ سبعة آلاف سنة، فمهدوا بذلك طريق التقدم الطويل نحو التطور الحضارى.

ومع ذلك لم يكن العطاء الأكبر الذى قدمته الحضارة المصرية القديمة للبشرية هو التقدم المادى، بل كان هو «**الضمير**»، الذى هو ميزان الصواب والخطأ، وما ينبغى ومالا ينبغى، ومفاهيم الحرية والعدل والمساواة، وإنكار الذات، والاحترام المتبادل، والسعى إلى التسامى الروحى.

٨ - ما كان للحضارة الإنسانية المعاصرة، التى يباهى بها الإنسان الحديث، أن تحقق ما حققته فى المجالات العلمية والإنسانية دون الرافد العظيم الذى أمدتها به **الحضارة العربية الإسلامية**، وقد أكد ذلك المعنى المستشرق سبنسر فاميرى فى قوله: «.. لا يَسَع **فلكى** واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسمًا عربيًا، ولا يستطيع أى **عالم طبيعى** أن يُحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسًا عربيًا، ولا يقدر أى **قاض** أن يبت اليوم فى خلاف دون أن يستدعى مبدأ أملته العرب، ولا يسع أى طبيب أن يتأمل أحد الأمراض المعروفة منذ القدم إلا ويهمس بآراء طبيب عربى، ولا يستطيع أى **رحالة** أن يدلف إلى أبعد زوايا آسيا وإفريقيا دون أن يعمد إلى اللغة العربية».

ثامنًا: الحضارة المعاصرة جعلتنى مَسْخًا مشوهًا

١ - يتجاذب النفس الإنسانية نمطان من التوجه فى الحياة، الأول هو «**نمط التملك**» المهيمن على المجتمع الصناعى الحديث، الذى يحقق الشعور بالذات من خلال القوة والتملك المادى، ويقوم على الجشع والحسد والعدوان. أما الثانى، فـ« **نمط الكينونة**» الذى يسعى لإثبات الذات من داخلنا، ويقوم على الحب وسمو القيم الإنسانية فوق القيم المادية. إن الفرق الجوهرى بين الكينونة والتملك هو الفرق بين **التوجه نحو الإنسان والتوجه نحو الأشياء**.

إن الحاجة لإحداث تغيير جذرى فى وجدان الإنسان وقلبه وضميره لا تنبع من كونها مطلبًا أخلاقيًّا ودينيًّا وحسب، بل أصبحت لأول مرة فى التاريخ **شرطًا لبقاء الجنس البشرى**.

٢ - إن الحضارة المادية المعاصرة (بإيجابياتها وسلبياتها) إفراز **لعقل مادى محايد**، لا علاقة له بالأخلاق أو بالأسئلة الكلية (الخاصة بالوجود وبمنشأ الإنسان ومآله والغرض من وجوده) أو بالمقدس أو بما يتجاوز عالم الحواس الخمس المباشر. لذلك فهو **لا يعترف بوجود مرجعية أخلاقية أو إنسانية ثابتة مستقرة**، بل يستمد قيمه من واقعه المتغير الذى يصير إليه، أى أنه يتبع «**منطق الأمر الواقع**» أو «**أخلاق الصيرورة**».

٣ - تقوم الحضارة الحديثة **بتفكيك الإنسان تمامًا (رده إلى ماديته)، ثم إعادة تركيبه كمُنتج ومستهلك**. وحتى يتحمل الإنسان هذا النمط المعيشى غمرته تلك الحضارة بأكبر قدر من **الاستمتاع واللذة**، فصار فى ظلها متوجهًا نحو هدف نهائى مركب واحد: «**الاستمتاع ـ الإنتاج ـ الاستهلاك**». وبذلك أصبح الإنسان خالى من المنظور الإنسانى، ومنزوع القداسة عن كل شىء، حتى عن نفسه.

٤ - من أهم سلبيات الحضارة المادية الحديثة «**النسبية المعرفية والأخلاقية المطلقة**» بعد أن فقد الإنسان مرجعيته (الدين، العرف، الأسرة...). إن هذه النسبية قوضت الإنسان من الداخل وجعلت منه شخصية هشة غير قادرة على اتخاذ أى قرار، ويمكن ـ فى الوقت ذاته ـ إقناعه بأى شىء وكل شىء. وقد **انعكس غياب المرجعية على كل مناحى الحياة**؛ الاجتماعية ـ السياسية الفنية... وكنتيجة طبيعية لانعدام المرجعية **ضمرت مؤسسة الأسرة، وساد الهوس الجنسى، والشذوذ، والاغتصاب**، وقامت **الثورة الجنسية** فى ستينيات القرن العشرين، وظهرت **الأشكال البديلة للأسرة!** وانتشرت **الإباحية فى الفن**.

٥ - يصف روجيه جارودى الحضارة الحديثة بأنها «**حضارة حفرت قبرًا يكفى لدفن العالم**». فقد بسطت سيطرتها على العالم عن طريق الإمبريالية العسكرية، ثم السياسية، ثم الاقتصادية. ولم تكتف هذه الحضارة بذلك بل مارست على الإنسان «**إمبريالية نفسية**» حولته إلى **حيوان اقتصادى جسمانى**، لا يبحث إلا عن منفعته الاقتصادية ولذته الجسدية. وتم ذلك عن طريق غزو داخلى مارسه الإعلام (من خلال الجنس والإبهار) بسطوة واقتدار، حين أقنع الإنسان بأن يكون «بسيطًا»، «طبيعيًّا» يحيا «**بلا عقد**». إنها باختصار **حضارة «اللاحضارة»**.

٦ - ثم استمر مفهوم النسبية فى الاتساع حتى قَوَّضَ كل شىء، بل وقَوَّضَ الإحساس بالوجود الحقيقى للعالم. لقد دخلت حضارتنا «**عصر ما بعد الحداثة**» الذى تحطمت فيه كل اليقينيات والمسلمات، حتى سُمِيَّت «**ضد الأساس**»؛ لأنها تتعامل مع عالم بلا أساس ولا مركز ولا معيار يُحتَكَم إليه؛ لذلك فأيديولوجية ما بعد الحداثة ترفض أن تعطى للتاريخ أى معنى (**عصر نهاية التاريخ**) وتُسقط كل الأيديولوجيات (**عصر ما بعد الأيديولوجيات**)، بل وترفض أن تعطى للإنسان أى قيمة أو مركزية (**عصر ما بعد الإنسان**).

٧ - لقد آن الأوان لعمل **دراسة لكُلفة التقدم** الذى أصبح يهدد وجود الإنسان على هذا الكوكب بدلًا من أن يحقق له السعادة. لقد **أصبح التقدم هدفًا فى حد ذاته**، فكانت النتيجة استنزاف موارد الطبيعة، وتلويث البيئة، والتلاعب بالجينات، ومسخ الإنسان، وتحميل جهازه العصبى فوق الطاقة. لذلك **ينبغى مقارنة عائد التقدم بتكاليفه**، وأن ننظر للتقدم المادى فى إطار ما يُحدث من تخلف إنسانى.

أنا... فى القرآن الكريم

تاسعًا: ذاتٌ ذات خمسة روافد

١ - تنظر الديانات والفلسفات الدينية للإنسان نظرات مختلفة، بين من يرى أنه جوهر واحد وهو الروح، إذ الجسد إلى فناء، ومن يراه روح وجسد، ومن يراه روح ونفس وجسد. والمتأمل فى القرآن الكريم بعمق يرى الذات الإنسانية من خلال **خماسية** يؤكد عليها بالطرح المتكرر. فالإنسان ـ فى القرآن الكريم ـ **جسد، وعقل، وقلب، ونفس، وروح**.

٢ - «**الجسد**» فى القرآن الكريم **مُكَوِّن أساسى للذات الإنسانية**، فلا هو شىء مُدَنَّس مُنتَقَص لا يحقق الإنسان العروج الروحى إلا بإذلاله، ولا هو دابة للروح تصل بها إلى مُبتغاها ثم تتركها. و«**حياة الجسد**» **عملية بيولوجية** نشترك فيها مع كل الكائنات الحية، تعتمد على نشاطات عضوية لا علاقة لها «بالروح» الإنسانى العاقل المُكَلَّف.

٣ - يتحدث القرآن الكريم عن «**التعقل**» كوظيفة، ولا يأتى فيه ذكر للعقل. وقد وهب الله ﷻ العقل **مَلَكَات** تعينه على القيام بمهامه التى حدد للإنسان مجالاتها وغاياتها، كما حَجَرَ عليه التفكر فى مجالات أخرى. كذلك بَيَّنَ الله ﷻ للإنسان أن من يُعَطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون مرتبة الحيوان الأعجم.

٤ - ينظر القرآن الكريم إلى «**القلب**» فى الإنسان كالملك بين الرعية. وفى مواضع عديدة، يحدد القرآن الكريم للقلب **صفات ووظائف عاطفية ومنطقية** تُعَجِز عن الحصر، **منها ما هو خير ومنها ما هو شر**، حتى يكاد يكون مسئولًا عن سلوك الإنسان كله. وتبعًا لذلك تنقسم القلوب إلى أربعة أنواع: **قلوب المؤمنين، وقلوب الكفار والمنافقين، والقلوب الميتة، والقلوب المريضة.**

٥ - «**والروح**»، هى أشرف عناصر الذات الإنسانية وأزكاها، فهى **خير مطلق**، وهى خصوصية الإنسان التى يتميز بها على باقى الكائنات. وقد **فتح نفخُ الروح للإنسان المجالات العُلوية**، فأصبح قادرًا على التعامل مع عوالم الضمير والإيمان والعدالة والرحمة والجمال والفن. لقد أصبح الإنسان بتلك النفخة سيدًا كونيًّا أبديًّا، واستحق الخلافة من الله فى الأرض.

ويختلف **تَعَلُّق الروح بالجسد** من حين لآخر، فهو فى الجنين غير تعلقه بعد الولادة، وفى اليقظة غير تعلقه أثناء النوم، وتعلقه بعد الوفاة غير تعلقه عند البعث. وإذا كان من اليقين القرآنى أن **أرواح الموتى تتلاقَىَ**، فهناك إشارات تشير إلى تلاقِى أرواح الأموات بأرواح الأحياء.

٦ - تُعتبر «**النفس**» أقرب عناصر الذات الإنسانية إلينا، وجاء ذكرها كثيرًا فى القرآن الكريم، واختلفت الآراء فى حقيقتها وفى علاقتها بالروح. والنفس «**محل التكليف والاختيار**» إذ إن فيها النوازع النفسية (إن خيرًا أو شرًّا)، وقد أوتى الإنسان الحرية

فى تزكيـة النفس وتطهيرها أو تدنيسـها وظلمها. والنفـس فى القرآن الكريم على ثلاث مراتب؛ **نفس أمارة بالسوء، ونفس لَوَّامَة ونفس مطمئنة.**

٧ - ويمكن اعتبار أن **للإنسـان خمسـة أعـمار**: عُمر الميلاد، وعمر الجسـم (صحته) وعمر العقل (حكمته)، وعمر القلب (إقباله على الحياة)، وعُمر الروح (الخالدة أبدًا).

عاشرًا: الموت بين العلم والدين

١ - الموت بالنسـبة للطب، هو توقف وظائف الأجهزة الحيوية للجسـم «الجهاز التنفسـى ـ الجهـاز الدورى (القلـب) ـ والجهاز العصبى (المخ)». ويميز الطب ثلاثة مسـتويات لموت المخ؛ موت القشرة المخية، موت جذع المخ، موت المخ الكلى. وبعد موت المخ قد يسـتمر نشاط باقى الوظائف الحيوية للجسـم لفترة بدعم من أجهزة التنفس الصناعى والعقاقـير الطبيـة. وقد اتفقت معظـم المجامع الدينية والطبية على **اعتبار الإنسـان بعد موت جذع المخ مَيْتًا**، وأجازت نقل الأعضاء منه.

٢ - يُفَـرِّق القـرآن الكريم بين الموت والوفاة، **فالموت** نقيـض الحياة، وهو أمر يُترك للطب تشخيصه. **أما الوفاة** فهى مفارقة الروح الإنسانى المدرِك للجسم، وهذه المفارقة تحدث عند الموت، كما تحدث عند النوم، الذى يمكن اعتباره «**الوفاة الصغرى**».

وبتأمل الآيات القرآنية، يتضح أن الوفاة الكبرى (مفارقة الروح للجسم بشكل نهائى) تسبق الموت، ومن ثم فإن التشخيص الطبى للموت ينسجم مع المفهوم الدينى الذى يرى أن الموت يكتمل بتحقيق مرحلتين، **مفارقة الروح النهائية للجسم، ثم توقف الحياة.**

٣ - ينظر القرآن الكريم للموت باعتباره «خلق» شأن الحياة تمامًا، وأنه معبر بين مسيرتين، ينقلنـا إلى «**حيـاة البرزخ**»، التى هـى مرحلة انتقالية تُصَفِّى فيهـا النفس حياتها الدنيوية وتتهيأ لحياتها الأخرى التى تبدأ بيوم القيامة.

٤ - ليس البعث مجرد عودة الإنسـان إلى الحيـاة، بل هو **بداية الانطلاقة الكبرى نحو الحياة الأبدية بقوانينها الجديدة** (كانعدام قيد الزمان والمكان وتوقف السببية)، بعد فناء الحياة الدنيا وما كان ينظمها من قوانين الطبيعة.

٥ - لا شك أن **العناصر الخمس للذات الإنسانية ستتبدل** بما يتلاءم مع حياتنا فى الجنة (إن شاء الله). فالجسم يصير فى شباب دائم، والعقل يتوقف عن كدحه ويهنأ بنعيمه الخالد، أما النفس فتتغير طبيعتها من «الأنا المريدة» التى تميز النفس الأمارة إلى «الأنا المحبة» التى تميز النفس الآمنة المطمئنة. وهذا التبدل فى عناصر النفس يتطلب إعداد مسبق يقوم به الإنسان فى حياته الدنيا عن طريق المجاهدة والعبادة والعمل الصالح.

القارئ الكريم...

كان منهجنا فى رحلتنا أن نتعرف على الذات الإنسانية، من خلال نظرة العلوم المختلفة إليها، ثم من خلال تعريف القرآن الكريم بها. وهدفنا المباشر من ذلك تحقيق مزيد من الفهم لأنفسنا ولمن حولنا، بعد أن طمست الحضارة الحديثة ملامح هويتنا الإنسانية. وهدفنا الأسمى أن نرقى من معرفة الإنسان إلى معرفة الله ، فمن عرف نفسه عرف ربه...

وأتمنى أن نكون فى ختام رحلتنا قد حققنا هدفنا...

تعريف بالمؤلف

أ.د. عمرو عبد المنعم شريف

* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

* **أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق** ـ كلية الطب ـ جامعة عين شمس. **مع التخصص الدقيق** فى جراحات الكبد والجهاز المرارى وجراحة مناظير البطن وجراحات الحوادث.

* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨ والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

* عضو مؤسِّس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى ـ بسويسرا.

* أُختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤، والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

* مفكر ومُحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات، والعلاقة بين العلم والفلسفة والعقل وبين الأديان.

*** من مؤلفاته:**

- كتاب «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان»، طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية»، عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!»، وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة، وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين. وشارك فى تأليفه د. نبيل كامل خبير التنمية البشرية.
- كتاب «رحلة عقل»، ويعرض فيه كيف يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان، وذلك من خلال عرض الرحلة الإيمانية لأكبر ملحد فى القرن العشرين (أستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو)، ثم يستكمل الكتاب الرحلة ليعرض البراهين العقلية الدالة على تواصل السماء بالأرض (الديانات).
- كتاب «كيف بدأ الخلق»، يعرض قصة خلق الكون ثم الحياة وتطور الكائنات الحية، وصولًا إلى الإنسان. ويقرأ قصة خلق الإنسان فى القرآن الكريم فى ضوء حقائق العلم.
- كتاب «ثم صار المخ عقلًا»، ويتناول فيه دور المخ البشرى فى ملكات الإنسان العقلية ومشاعره الروحية، وهى أهم ما يتميز به الإنسان على غيره من الكائنات.
- ترجم كتاب «الطب المصرى القديم» مع د. عادل وديع فلسطين، وهو أفضل كتاب فى موضوعه.